ملخص

إشكالية الدراسة:

رغبة الباحث في إظهار دور الحركة الصليبية في بلاد المغرب في عصر بني زيري؛ لأن معظم الباحثين لم يوجهوا عنايتهم بما فيه الكفاية للحركة الصليبية في بلاد المغرب، وذلك لأن الجزء الأكبر من جهودهم فيها قد انصرف إلى ميدانها الرئيسي في الشام ومصر.

أهداف البحث:

تهدف الدراسة إلى إظهار دور الحركة الصليبية في بلاد المغرب خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين أثناء حكم بني زيري لبلاد المغرب، والمتمثلة في الحملات المبكرة التي قامت بها المدن الايطالية خلال القرن ٥هـ/١١م وحملات النورمان خلال القرن ٦هـ/١٢م وما حققته هذا الحركة من نتائج.

منهج البحث:

اعتمد البحث على المنهج التحليلي المعتمد على الاستنتاج والتحليل في استقراء الروايات، كما اعتمد على مجموعة من المصادر والمراجع العربية والأجنبية بعضها ذا فائدة كبيرة لا يمكن الاستغناء عنها، وبعضها ذا فائدة ثانوية

حدود البحث:

اقتصر البحث على ذكر الحملات الصليبية على بلاد المغرب في عهد بني زيري خلال الفترة (٥٤٣.٣٦٢هـ /١١٤٨.٩٧٢م)

نتائج البحث:

١. أثبتت الدراسة أن الحملات الصليبية على بلاد المغرب لم تكن مجرد حركة هامشية في العصور الوسطى، بل كانت حركة محورية محددة الأهداف والمعالم.

٢. أثبتت الدراسة فشل الحملات المبكرة على بلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي والتي قامت بها المدن الايطالية ويرجع أسباب هذا الفشل إلى قوة ويقظة الدولة الزيرية وأسطولها خلال ذلك القرن.

٣. كشفت الدراسة عن حالة الضعف والانقسام التي أصابت المسلمين في بلاد المغرب خاصة خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، والتي سهلت على النورمان احتلالها بدء من عام(٥٣٧هـ/١١٤٢م) فأخذوا يتغلبون تدريجيًا على مدن المغرب الواحدة تلو الأخرى حتى تم لهم الاستيلاء على المهدية عاصمة الدولة الزيرية عام (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) وبالتالي سقوط الدولة.

Summary of scientific research
Research Title:
Crusades against the Maghreb during the reign of Bani Ziri (362-543AH /972-1148AD).
Problematic study;
The researcher's desire to show the role of the Crusader movement in the Maghreb in the era of Beni Ziri, because most researchers did not pay enough attention to the crusade in the Maghreb, because the bulk of their efforts have gone to the main field in the Levant and Egypt.

research goals;
The study aims at showing the role of the Crusader movement in the Maghreb during the 5th and 6th/11th/AD 11th centuries, during the reign of Beni Ziri of the Maghreb, represented by the early campaigns carried out by the Italian cities during the 5th/11th century and the Norman campaigns during the 6th/This movement has achieved results.

Research Methodology;
The research was based on the analytical method based on the conclusion and analysis in the extrapolation of the narratives. It also relied on a number of Arab and foreign sources and references, some of which are of great benefit and can not be dispensed with.
search limits;
The research was confined to mentioning the Crusades against the Maghreb during the reign of Beni Ziri during the period (362-543AH/ 972-1148AD).
research results;
1-The study proved that the crusades against the Maghreb were not only a marginal movement in the Middle Ages, but a pivotal movement with specific objectives and milestones.
2-The study proved the failure of the early campaigns on the country of Morocco during the fifth century AH/11th century AD, carried out by the Italian cities and the reasons for this failure to the strength and vigilance of the Zairian state and fleet during that century.

3-The study revealed the state of weakness and division that affected Muslims in the Maghreb especially during the sixth century AH/12th century, which facilitated the Norman occupation of the beginning (537AH/1142AD) They gradually overcome the cities of Morocco one by one until they were seized Mahdia, the capital of the Zirid state(543AH/1148AD) And **thus** the fall of the state.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الحركة الصليبية في العصور الوسطى لم تكن مجرد حركة هامشية، بل كانت حركة محورية محددة الأهداف في ذلك الحين، بل هي ما فتئت مستمرة إلى يومنا هذا في أهداف أخرى اختلفت أنواعها وأشكالها.

لقد كانت عظمة الفتوحات الإسلامية تحز في نفوس الصليبيين، وكان أثر هذه الفتوحات يحملهم على الحقد والبغض للإسلام أكثر مما يحملهم على الإعجاب والخوف منه، ولهذا فإنهم يحترقون شوقًا إلى اليوم الذي يستطيعون فيه الأخذ بالثأر، وإرجاع النفوذ في مناطق غنية بخيراتها المادية والروحية، وإذا كانت الدولة الإسلامية في عنفوانها، فلا سبيل إلى الإقدام على مهاجمتها، وإنما ينبغي الانتظار للفرصة المتاحة والوقت المناسب.

وقد اختلف المؤرخون في تعداد أسباب الحملات الصليبية وتنوعها، ولكن مهما كان هذا الاختلاف، فان الأسباب التي حملت أوربا على إعلان الحروب الصليبية سواء أكانت في المشرق أم المغرب ترجع إلى سببين أساسيين:

الأول: رد الفعل الصليبي المشبع بالحقد ضد العالم الإسلامي .

الثاني: دافع الطمع والكسب والتنافس الذي اختلفت أنواعه وأشكاله.

لقد كان للحروب الصليبية في بلاد المشرق والتي كانت تهدف إلى استخلاص بيت المقدس صلة وثيقة بالحروب الصليبية في بلاد المغرب والتي كانت تهدف إلى استرجاع إفريقيا والأندلس إلى حظيرة النصرانية من جهة، وإلى محاربة الإسلام، ومحاولة القضاء عليه من جهة أخرى، ومن ثم فإن الحروب التي فرضها الغرب الصليبي على المغرب وشمال إفريقيا بوجه عام تدخل في إطار الحروب الصليبية، إذ لم تكن في شراستها، لكنها تختلف من حيث دوافعها ونتائجها عن تلك التي كانت في مناطق أخرى من العالم الإسلامي .

ويؤكد الباحثون أن الحروب الصليبية في المغرب سبقت المشرق. إذ حظيت بلاد المغرب باهتمام الحملات الصليبية منذ وقت مبكر وبالتحديد خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وذلك نظرا لأهميتها الجغرافية والدينية والاقتصادية والسياسية، وعن بداية الحملات الصليبية في المغرب قبل المشرق يقول ابن الأثير:" كان

ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس ....، ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها....، وتطرقوا إلى أطراف إفريقية فملكوا منها شيئًا وأخذ منهم ثم ملكوا غيره ....، فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام"[١].

ولما كانت بلاد المغرب محط أنظار الصليبيين وهدفًا من أهدافهم وقد تطلعوا إليها قبل المشرق، فإني رأيت أن يكون بحثي عن الحملات الصليبية الأولي على بلاد المغرب، والذي لم يحظ باهتمام الباحثين الذين لم يسلطوا الأضواء على الحركة الصليبية في المغرب، لأن الجزء الأكبر من جهودهم في تلك الحركة قد انصرف إلى ميدانها الرئيسي في المشرق.

وقد بدأت الحملات الصليبية الأولى على بلاد المغرب في عهد بني زيري (٣٦٢.٥٤٣هـ /٩٧٢.١١٤٨م) .

وقمت بتقسيم هذه الحملات إلى قسمين:

الأول: الحملات المبكرة خلال القرن ٥هـ/١١م.

الثاني: حملات النورمان خلال القرن ٦هـ/١٢م.

أما خطة البحث فكانت على النحو الآتي:

تمهيد: ويشتمل على: التعريف بمصطلحات عنوان البحث وهي:

(الحملات الصليبية . بلاد المغرب . بني زيري).

أولًا: الحملات المبكرة خلال القرن ٥هـ/١١م وهي على النحو الآتي:

. الحملة على بونة عام (٤٢٦هـ/١٠٣٤م).

. الحملة على جزيرة جربة عام(٤٣١هـ/١٠٣٩م).

. الحملة الأولى على المهدية عام (٤٨٠هـ/١٠٨٧م).

. الحملة الثانية على المهدية عام (٤٩٨هـ/١١٠٤م).

ثانيًا: حملات النورمان خلال القرن(٦هـ/١٢م) وهي على النحو الآتي:

. الحملة على قابس عام (٥١٠هـ/١١١٦م)

. الحملة الأولى على المهدية عام(٥١٧هـ/١١٢٣م).

. الحملة الثانية على المهدية عام(٥٢٩هـ/١١٣٥م).

. الحملة على جربة عام (٥٢٩هـ/١١٣٥م).

. حملات النورمان على طرابلس الغرب (٥٣٧.٥٤٠هـ /١١٤٢.١١٤٥م).

---

(١) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ: تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري . دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان . الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج٨ ص٤١٥.

. استيلاء النورمان على قرقنة عام (٥٤٠هـ/١١٤٥م).

. الاستيلاء على المهدية عام (٥٤٣هـ/١١٤٨م).

. الاستيلاء على صفاقس وسوسة عام (٥٤٣هـ/١١٤٨م).

. أهم النتائج التي توصل إليها الباحث.

منهج البحث:

اعتمد الباحث على المنهج التحليلي المعتمد على الاستنتاج والتحليل في استقراء الروايات، وقد اعتمدت في إعداد هذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع العربية والأجنبية، ويأتي في مقدمتها كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير (ت٦٣٠هـ /١٢٣٢م)، لأنه حافل بمعلومات كثيرة عن هذه الحملات وتفاصيلها، خاصة تفاصيل الغزو النورماني لبلاد المغرب، ويليه كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى (المتوفى: نحو٦٩٥هـ/١٢٩٥م)، وهو من الكتب المهمة التي زودت البحث بمعلومات قيمة عن الأحداث السياسية، وكتاب العبر لابن خلدون (ت٨٠٨هـ /١٤٠٥م)، الذي يوافق ابن الأثير في كثير من النصوص مع بعض التغير في التعبير، كما اعتمدت على كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار للقيرواني(ت نحو١١٠٢هـ/١٦٩٠م)، وكذلك كتاب رحلة التيجاني(ت٧١٧هـ) ومصادر كثيرة أخرى لا يسمح المجال لذكرها، أما بالنسبة للمراجع الحديثة فقد اعتمدت الدراسة على بعض المراجع العربية والأجنبية والتي أفادت البحث منها على سبيل المثال:

١. نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار لمؤلفه (محمود بن سعيد مقديش) وهو مؤرخ تونسي(ت١٢٢٨هـ /١٨١٣م)

٢. الحروب الصليبية في شمال أفريقية وأثرها الحضاري (٧٩٢.٦٦٨هـ /١٣٩٠.١٢٧٠م) لمؤلفه (ممدوح حسين)

٣. الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الميلادي للمؤلف (الهادي روجي إدريس) وهو مؤرخ فرنسي من أصل تونسي:

وختامًا، فإني أسأل الله القبول، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم.

د/ فهمي عبد الغني محمد حسانين المصري
مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية اللغة العربية . جامعة الأزهر .
القاهرة.

تمهيد

التعريف بمصطلحات عنوان البحث وهي:

(الحملات الصليبية . بلاد المغرب . بني زيري)

أولًا: الحملات الصليبية.

الحملات الصليبية أو الحروب الصليبية بصفة عامة اسم يطلق على مجموعة من الحملات والحروب التي قام بها أوروبيون منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر (١٠٩٦.١٢٩١م)، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى الذين اشتركوا فيها، وكانت حملات دينية وتحت شعار الصليب من أجل الدفاع عنه، وذلك لتحقيق هدفهم الرئيسي وهو السيطرة على الأراضي المقدسة كبيت المقدس.

ويرى د/ عمران: أن الحركة الصليبية هي حركة استعمارية ولدت في غرب أوربا واتخذت شكل هجوم مسلح على بلاد المسلمين، وجذور هذه الحركة نابع من الأوضاع الدينية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية التي سرت في غرب أوربا في القرن الحادي عشر الميلادي واتخذت من الدين ستارًا لتحقيق أهدافها[١].

ويذكر د/ عاشور: أن الحركة الصليبية هي حركة استهدفت تطويق عالم الإسلام في المغرب والمشرق جميعًا، وضرب المسلمين برًا وبحرًا أينما وجدوا، وكان من الصعب على المسلمين أن يواصلوا مسيرتهم الحضارية وسط تلك الأخطار الجسيمة، فاضطروا إلى الانصراف عن الإنشاء والتعمير والنشاط الحضاري بأوسع معانيه والتفرغ للحرب والدفاع عن الأرض والتراث، مما أدى بهم إلى التخلف[٢].

ويرى أحد الباحثين: أن الحركة الصليبية هي رد الفعل المسيحي تجاه الإسلام وتمتد جذورها إلى بداية ظهوره، وخروج العرب المسلمين من جزيرتهم واصطدامهم بالدولة البيزنطية، وأن هذه الحركة تتطور كالكائن الحي على مدى قرون. ما تكاد تخرج من طور إلا لتدخل في طور جديد، وما كانت الفترة الزمنية الممتدة بين سنتي (٤٨٨.٦٩٠هـ/ ١٠٩٥.١٢٩١م) إلا أحد أطوارها فقط، وأن بروز هذا الطور بهذا الشكل الذي كاد أن يطغى على باقي أطوارها يعود الى عوامل معقدة ومتشابكة[٣].

وخلاصة القول: إن الحملات الصليبية هي تلك الحملات العسكرية التي قام بها

---

(١) محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية: دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية. مصر. ٢٠٠٠م ص١٥.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية: مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. الطبعة الأولى٢٠١٠م ج١ ص٧.

(٣) ممدوح حسين: الحروب الصليبية في شمال أفريقية وأثرها الحضاري(٧٩٢.٦٦٨هـ /١٣٩٠.١٢٧٠م): دار عمار. عمان . الأردن . ط١٤١٩.١هـ/١٩٩٨م ص١٠.

الصليبيون ضد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بهدف القضاء على المسلمين أو السيطرة عليهم، وقد تعددت أسباب هذه الحملات وتنوعت من حملة إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر، ومازالت هذه الحملات موجودة إلى الآن وإن اختلفت أشكالها وأساليبها.

ثانيًا: بلاد المغرب.

ذكرها ياقوت بأنها:" اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة تمتد من طرابلس الغرب[١] من جهة برقة[٢] والإسكندرية إلى بجاية"[٣].

(١) طرابلس: مدينة كبيرة من مدن إفريقية، على ساحل بحر الروم بها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون فتحت عام ٢٣هـ وبنى سورها هرثمة بن أعين أثناء ولايته(١٧٩.١٨١هـ) (الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت٣٤٦هـ): المسالك والممالك . الهيئة العامة لقصور الثقافة . القاهرة . ص٣٣، القزويني، زكريا بن محمد (ت٦٨٢هـ): آثار البلاد وأخبار العباد: دار صادر . بيروت . ص٤٠٨، الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٩٠٠هـ): الروض المعطار في خبر الأقطار: تحقيق/ إحسان عباس . مؤسسة ناصر للثقافة . بيروت . الطبعة: الثانية ١٩٨٠م ص٣٨٩، ٣٩٠) وتقع اليوم على ساحل ليبيا الغربي وتعرف باسم طرابلس الغرب وهي الآن عاصمة ليبيا(موقع ويكيبيديا: تحت عنوان طرابلس) .

(٢) برقة: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية (ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت٦٢٦هـ): معجم البلدان : دار صادر . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٩٥م ج١ ص٣٨٨) فتحها عمرو بن العاص عام٢٢هـ، وتقع اليوم في شرق الدولة الليبية على ساحل البحر المتوسط وأشهر مدنه

وكانت بلاد المغرب تنقسم في العصور الإسلامية إلى:

١. الْمغرب الأدْنى وقاعدته في صدر الإسلام مدينة القيروان[٤]، وسمى أدنى لأَنه أقرب إلى بلاد العرَب ودار الخلافة[٥].

بني غازي ودرنة (الزاوي، الطاهر أحمد (ت١٩٨٦م): تاريخ الفتح العربي في ليبيا: دار المدار الإسلامي . بيروت . لبنان . الطبعة الرابعة ٢٠٠٤م ص٣٤.٣٧).

(٣) ياقوت: معجم البلدان : ج١ ص٢٢٨، وبجاية مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، كان أول من اختطّها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري بن مناد بن بلكّين، في حدود سنة ٤٥٧هـ، كانت قديمًا ميناء فقط ثم بنيت المدينة (ياقوت : معجم البلدان: ج١ ص٣٣٩) وهي اليوم مدينة جزائرية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط (موقع ويكيبيديا: تحت عنوان بجاية).

(٤) القيروان: من المدن الكبرى في المغرب الأدنى (تونس) بنيت بعد الفتح العربي لبلاد المغرب على يد عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ، في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وقد بناها عقبة بعيدة عن البحر لكي لا تتعرض لهجمات البيزنطيين البحرية. كانت وما زالت من أهم مدن الإسلام في إفريقية الإسلامية (ياقوت: معجم البلدان: ج٤ ص٤٢٠، ٤٢١ بتصرف، القزويني: آثار البلاد: ص٢٤٢)، وهي اليوم مدينة تونسية، تبعد حوالي ١٦٠ كيلومتر عن تونس العاصمة (موقع الموسوعة الحرة: ويكيبيديا: تحت عنوان القيروان).

(٥) السلاوي، شهاب الدين أحمد بن خالد بن محمد (ت١٣١٥هـ): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: تحقيق/ جعفر الناصري، محمد

٢. الْمغرب الْأَوْسَط[١] وقاعدته في صدر الإسلام مدينة "تلمسان"[٢].

٣. المغرب الأقصى، وسمي بذلك لبعده عن دار الخلافة في صدر الإسلام[٣].

ويذكر أحد المؤرخين المحدثين أن الحدود السياسية للمغرب الآن كالآتي:

من جهة الشرق قرية السلوم غرب الإسكندرية، ومن جهة الغرب المحيط الأطلسي، ومن الشمال بحر العرب، ومن الجنوب السودان، ومن الجنوب الغربي السنغال، ومن الجنوب الشرقي تشاد وغرب السودان، ومن الوسط مالي والنيجر[٤].

ويمكن القول:

إن بلاد المغرب مصطلح يطلق على كل الأقاليم الواقعة غرب مصر، وتتضمن حاليًا (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا) والتي تعرف بدول شمال إفريقيا.

وقد بدأ الفتح الإسلامي لهذه البلاد عام (٢١هـ/٦٤٢م) بعد أن فتحت مصر على يد الصحابي الجليل عمرو بن العاص ﷺ. سنة (٢١هـ/٦٤٢م)، وأخذ يتطلع إلى فتح إفريقية[٥] لتأمين حدود مصر والشام من الخطر البيزنطي من ناحية، وإتاحة الفرصة للتعرف على الدين الإسلامي للدخول فيه والإيمان به من ناحية أخرى، وبعد إتمام الفتح الإسلامي لبلاد

الناصري . دار الكتاب . الدار البيضاء . المغرب . ج١ ص١٢٧.

(١) المغرب الأوسط: هو اسم تاريخي للمنطقة الممتدة من وادي ملوية وجبال تازة غربًا إلى بجاية شرقًا وقاعدته مدينة تلمسان (البكري: المسالك والممالك: ج٢ ص٧٤٦، الحميري: الروض المعطار: ص ١٣٥، ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد(ت٧٧٩هـ): رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار): أكاديمية المملكة المغربية . الرباط .١٤١٧هـ ج٥ ص٧٩).

(٢) السلاوي: المصدر نفسه : ج١ ص١٢٧، ومدينة تلمسان مدينة عظيمة قديمة فيها آثار كثيرة أزلية تنبئ أنها كانت دار مملكة لأمم سالفة، وكانت أيضا دار مملكة زناتة و قاعدة المغرب الأوسط (كاتب مراكشي مجهول(ت ق ٦هـ): الاستبصار في عجائب الأمصار: دار الشؤون الثقافية . بغداد . ١٩٨٦م ص١٧٥، ١٧٦) وهي اليوم مدينة في شمال غرب الجزائر، عاصمة ولاية تلمسان، وثاني مدينة من حيث الأهمية بعد وهران(موقع ويكبيديا تحت عنوان تلمسان).

(٣) السلاوي: المصدر نفسه: ج١ ص١٢٧.

(٤) دبوز، محمد علي: المغرب الكبير: مؤسسة تاوالت الثقافية .٢٠١٠م ج١ ص١١.

(٥) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (ت٢٥٧هـ): فتوح إفريقية والأندلس: تحقيق/ عبد الله أنيس الطباع . دار الكتاب اللبناني . بيروت . ١٩٦٤م: ص١١.

للمغرب بدأ عصر جديد عرف بعصر الولاة[١] ثم عصر الدول المستقلة[٢].

ثالثًا: بني زيري (٥٤٣.٣٦٢هـ/ ١١٤٨.٩٧٢م):

بني زيري أو بني مُناد نسبة إلى الأمير زيري[٣] بن مناد الصنهاجي مؤسس السلالة

(١) يطلق عصر الولاة في التاريخ الإسلامي على الفترة الواقعة بين تمام الفتح الإسلامي للبلد، وقيام أول دولة مستقلة فيه، حتى لو كان تابعًا للخلافة، وفيما يتعلق بالمغرب لا ينتهي عصر الولاة في تاريخ واحد بالنسبة لأقطاره المختلفة، فقد انتهى عصر الولاة بالمغرب الأوسط بقيام الدولة الرستمية (١٦٤هـ/٧٨١م)، وفى المغرب الأقصى بقيام الدولة الإدريسية (١٧٢هـ/٧٨٨م)، وفى إفريقية بقيام دولة بني الأغلب (١٨٤هـ/٨٠٠م) (حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس: الهيئة المصرية العامة للكتاب . مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠٤م ص ٦٥، راغب السرجاني: قصة الإسلام في بلاد المغرب ، مقال نشر بموقع قصة الإسلام)

(٢) بدءً من دولة الأغالبة عام (٢٩٦.١٨٤هـ/٩٠٩.٨٠٠م) وهم سلالة عربية حكمت في المغرب العربي مع جنوب إيطاليا وصقلية وسردينيا وكورسيكا ومالطة. كان مؤسس الأسرة هو الأغلب بن سالم بن عقال التميمي قائدًا لجيش العباسيين، ثم أصبح ابنه إبراهيم (١٩٦.١٨٤هـ/٨٠٠-٨١٢م) والياً على إفريقية من طرف هارون الرشيد ابتداءً من سنة(١٧١هـ/ ٧٨٧م) غير أنه استقل بالأمر سنة (١٨٤هـ/٨٠٠م) (الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان(ت٧٤٨هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري . دار الكتاب العربي . بيروت . الطبعة: الثانية١٤١٣هـ/١٩٩٣م ج١٣ ص٨٣، ٨٤)، ثم الدولة الفاطمية بالمغرب عام (٣٦١.٢٩٦هـ /٩٧٢.٩٠٨م) والتي قامت على يد الداعي الشيعى أبي عبد الله الحسين بن أحمد وبمساعدة قبيلة كتامة البربرية، ثم انتقلت إلى مصر عام(٣٦٢هـ/٩٧٣م) واستمرت حتى عام (٥٦٧هـ/١١٧١م) حينما قضى عليها صلاح الدين الأيوبي(المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر(ت٨٤٥هـ): اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء: تحقيق/ جمال الدين الشيال، محمد حلمي . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . الطبعة: الأولى ج١ ص٥٥، ٥٦، ج٣ ص٣٢٨، مقديش، ابن سعيد الصفاقسي (ت١٢٢٨هـ /١٨١٣م): نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار: تحقيق/ علي الزواري، محمد محفوظ . دار الغرب الإسلامي . بيروت . لبنان . الطبعة: الأولى ١٩٨٨م ج١ ص٣٢٨) .

(٣) زيري بن مناد: هو الأمير زيري بن مناد الحميري الصنهاجي جد المعز بن باديس. بنى مدينة آشير بالمغرب الأوسط حيث مواطن قبيلته وحصنها واتخذها مركزا لحكمه. كان زيري من مؤيدي الفاطميين حيث حارب الخوارج في المغرب الأوسط ودخل معهم في حروب ضد كل من مغراوة و بنو يفرن، وتكريمًا له عينه الخليفة الفاطمي المنصور (٣٤١.٣٣٤هـ/٩٥٢.٩٤٥م) كوالي على ولاية إفريقية والمغرب الأوسط، فعظم شأنه وصار بنو زيري أعوانًا وأتباعًا للفاطميين (ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: تحقيق/ إحسان عباس . دار صادر . بيروت . الطبعة: الأولى ١٩٩٤م ج٢ ص٣٤٣، ٣٤٤).

الزيرية وهم أسرة بربرية يرجع نسبها إلى قبيلة صنهاجة والتي تنتمي إلى فرع من البربر البرانس، حكمت هذه الأسرة بلاد المغرب خلفًا للفاطميين، وقد ظهرت أسرة بني زيري . في أول أمرها . في طاعة الفاطميين، وتعاونت معهم في صد الأخطار التي تعرضت لها دولتهم بالمغرب[١].

وحينما عزم الخليفة الفاطمي (المعز لدين الله)[٢](٣٤١.٣٦٥هـ/٩٥٢.٩٧٥م) الانتقال إلى مصر في سنة (٣٦١هـ/٩٧٢م) وقع اختياره على يوسف بُلكِّين بن زيري بن مناد الصنهاجي ليتولى الإمارة بالمغرب خلفًا للفاطميين[٣]، فكان أول أمراء بني زيري في بلاد المغرب هو يوسف الصنهاجي (٣٦١.٣٧٣هـ/٩٧٢ .٩٨٣م) ولقب بسيف الدولة، وقيل سيف العزيز بالله، وقد تعاقب على حكم بلاد المغرب من بني زيري ثمانية أمراء[٤] استمر حكمهم نحو ١٨٠ عامًا

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت٨٠٨هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (المعروف بتاريخ ابن خلدون): تحقيق/ خليل شحاده . دار الفكر . بيروت . لبنان . الطبعة: الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ج٤ ص٥٨، مقديش: نزهة الأنظار : ج١ ص٣٦٢ .

(٢) المعزّ لدين الله أبو تميم معد بن إسماعيل المنصور بالله بن القائم محمّد ابن المهدي عبيد الله الفاطمي ولد بالمهديّة سنة (٣١٩هـ)، وبويع له سنة (٣٤١هـ) وهو أول من قدم منهم إلى الديار المصرية وملكها، وبنيت له القاهرة، وهو الرابع من بني عبيد بِبِلَاد الغرب، وتوفى سنة (٣٦٥هـ)، ومدة أيامه في الخلافة ثلاث وعشرون سنة منها ثلاث سنوات بمصر(ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد(ت٧٢٣هـ): مجمع الآداب في معجم الألقاب: تحقيق: محمد الكاظم . مؤسسة الطباعة والنشر– وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي . إيران . الطبعة: الأولى ١٤١٦هـ ج٦ ص٣٤٥.٣٤٧، المقريزي: اتعاظ الحنفاء: ج١ ص٩٣،ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف(ت ٨٧٤هـ): مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة: تحقيق/ نبيل محمد عبد العزيز . دار الكتب المصرية . القاهرة ج١ ص٢٦٨ .

(٣)ابن عذاري، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت نحو ٦٩٥هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: تحقيق/ ج. س. كولان، ليفي بروفنسال . دار الثقافة . بيروت . لبنان . الطبعة: الثالثة١٩٨٣م ج١ ص٢٢٨.

(٤) هم على الترتيب ١. بلكين (يوسف) بن زيري بن مناد الصنهاجي(٣٦٢.٣٧٣هـ /٩٧٢.٩٨٤م).

٢. المنصور بن بلكين بن زيري(٣٧٣.٣٨٦هـ/٩٨٤.٩٩٦م).

٣. باديس بن المنصور بن بلكين(٣٨٦.٤٠٦هـ /٩٩٦.١٠١٦م).

٤. المعز بن باديس بن منصور(٤٠٦.٤٥٣هـ /١٠١٥.١٠٦٢م).

٥. تميم بن المعز بن باديس(٤٥٣.٥٠١هـ/ ١٠٦٢.١١٠٧م).

٦. يحيى بن تميم بن المعز بن باديس(٥٠١.٥٠٩هـ/١١٠٧.١١١٦م).

٧. علي بن يحيى بن تميم(٥٠٩.٥١٥هـ/ ١١١٦.١١٢١م).

٨. الحسن بن علي بن يحيى(٥١٥.٥٤٣هـ/ ١١٢١.١١٤٨م).

تفاوتت هذه الفترة بين القوة والضعف حسب قوة الأمير الزيري أو ضعفه، كما تفاوتت بين طول فترة الحكم وقصرها.

الحملات الصليبية على بلاد المغرب

تعرضت بلاد المغرب للحملات الصليبية كما تعرضت بلاد المشرق حيث شهدت هذه البلاد صراعًا إسلاميًا صليبيًا مريرًا بدءً من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ويلاحظ أن الجزء الأكبر من جهود الباحثين في الحركة الصليبية قد اتجه إلى ميدانها الرئيسي في الشام ومصر، بحيث طغى ذلك على ميادين أخرى هامة لنشاط هذه الحركة، فعانت منها وذاقت من ويلات حروبها الكثير، وكانت بلاد المغرب إحدى هذه الميادين، فقد اكتوت بنار تلك الحملات الصليبية الأوربية وتلقت الضربات الأولى للصليبيين والسبب في ذلك يرجع إلى عدة عوامل جغرافية وتاريخية ودينية واقتصادية أهمها:

١. قربها الشديد من غرب أوربا مركز الحركة الصليبية.

٢. معرفة أوربا بأحوال المسلمين السياسية والاجتماعية بعد فتح الشام ومصر منذ زمن مبكر.

٣. الحقد الشديد الذي كان يُكنه الأوربيون للمسلمين المغاربة[١] لكونهم تولوا عبء الجهاد في أوربا أكثر من غيرهم من المسلمين، إضافة إلى ما كان يشعر به الأوربيون من خطر هؤلاء إذا تهيأت لهم الوحدة والقيادة المخلصة، لذلك كانت أوربا تتربص بمسلمي هذه المنطقة الدوائر وتتحفز للوثوب عليها منتظرة الفرصة المناسبة، وقد أخذت هذه الفرصة تتهيأ لمحركي قوى العدوان الصليبي منذ أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ إذ أصاب الجناح الغربي من العالم الإسلامي من التمزق ما جعله يسير بخطى حثيثة نحو التردي إلى الهاوية[٢] .

٤. رغبة البابوية في القضاء على الإسلام.

(الهادي إدريس: الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الميلادي: ترجمة/ حمادي الساحلي . دار الغرب الإسلامي . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى ١٩٩٢م ج١ ص٧٩، ج٢ ص٤٥٤، الصلابي، علي محمد: صفحات من التاريخ الإسلامي: الدولة الفاطمية: مؤسسة اقرأ . القاهرة . الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م . ص١١٨) .

(١) كانت كلمة المغاربة في العصور الوسطى تطلق على سكان المغرب الإسلامي بأسره والذي يضم الأندلس والجزر الإسلامية في غرب البحر المتوسط، إضافة إلى أقطار المغرب العربي وليس كما درج في العصر الحديث بقصرها على أهل المغرب الأقصى فقط (ممدوح حسين: الحروب الصليبية: ص١٣).

(٢) المرجع السابق: ص١٣ .

٥. الرغبة في امتلاك موانئ على البحر المتوسط لربط تجارتهم بالشرق.

٦. انتشار الحروب والمجاعات والأمراض والإقطاع في أوروبا مما جعلهم يبحثون عن أرض غنية(١).

وقد انقسمت هذه الحملات في عهد بني زيري إلى نوعين:

الأول: حملات مبكرة خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

الثاني: حملات النورمان في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.

أولًا: الحملات المبكرة خلال القرن ٥هـ/١١م.

تميزت هذه الحملات بالآتي:

. تعدد وتنوع الجنسيات المشاركة فيها لكن المكون الرئيسي لها كان من قِبَل المدن الايطالية التجارية القوة الناشئة في ذلك الوقت، فقد استغلت هذه المدن غياب القوى البحرية القديمة المتمثلة في الأسطولين الإسلامي والبيزنطي منذ أوائل ذلك القرن؛ لانشغال كلا الطرفين بمشاكله الداخلية وأخذت تعمل على بناء قوة بحرية، ولم تمض سنوات قليلة حتى كانت لها السيطرة على البحر المتوسط في ذلك الوقت.

. كانت حملات خاطفة لم تهدف إلى الاستقرار، ربما كان الهدف منها المكاسب الاقتصادية ومعرفة أحوال بلاد المغرب عن قرب، وتتمثل الحملات المبكرة على بلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي في الآتي:

---

(١) أحمد العسيري: موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر: مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض . الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ص٢١٤.

. الحملة على بونة[١] عام(٤٢٦هـ/١٠٣٤م)

مدينة بونة هي إحدى مدن المغرب الأوسط (الجزائر حاليًا)[٢] فتحها المسلمون عام(٧٨هـ /٦٩٧م) وهي من المدن الساحلية التجارية، وتتميز بالأمن والاستقرار ويقع بالقرب منها مرسى عرف بمرسى الخرز، وهو من المراسي المشهورة وتوجد به مراكب كثيرة حسب ما تشير إليه المصادر[٣] بالإضافة إلى احتواء المدينة على عدة أسواق وهو ما يوفر لها أرباحا طائلة يساهم بها التجار في إنعاش الحركة التجارية يقول الإدريسي:" وكانت لها أسواق حسنة وتجارة مقصودة وأرباح موجودة"[٤].

كما اشتهرت بونة بأنها من الثغور التي أنشئت فيها الرباطات إذا كان ساحلها معرضا للغارات البحرية التي كان يشنها عليها الصليبيون من البحر المتوسط[٥].

وقد تعرضت بونة لحملة صليبية خلال عهد بني زيري عام (٤٢٦هـ/١٠٣٤م) ولم

---

(١) بونة مدينة بإفريقية حصينة أحاط بها البحر إلا مسلكًا واحدًا، عليها سور وقد صنع بها مرفأ للسفن، وكانت تنشأ بها السفن والمراكب الحربية لغزو بلاد الروم، وإليها يقصد الغزاة من كل أفق (ياقوت: معجم البلدان: ج١ ص٥١٢، البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد(ت ٤٨٧هـ): المسالك والممالك: دار الغرب الإسلامي . ١٩٩٢م، ج٢ ص٧١٧، ٧١٨) وقد أُطلق عليها عنابة نسبة لكثرة أشجار العنّاب بها (العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت٧٤٩هـ): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: المجمع الثقافي . أبو ظبي . الطبعة: الأولى١٤٢٣هـ ج٤ ص١٤٣، الميلي، مبارك بن محمد (ت١٣٦٤هـ): تاريخ الجزائر في القديم والحديث . المؤسسة الوطنيّة للكتاب بالجزائر ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ج١ ص٥٧) وبعد الفتح الإسلامي لبونة دخلت تحت حكم الولاة، ثم ملكها بنو الأغلب ثم الفاطميون، ثم الزيريون (إسماعيل العربي: المدن المغربية: المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر . ص١٩٦، وما بعدها، يحيى بوعزيز: عنابة عبر التاريخ: مجلة كلية الآداب . جامعة وهران . الجزائر . العدد٢٣/٢٤ عام١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م ص١١٨ وما بعدها) وهي اليوم إحدى مدن الجزائر وعاصمة ولاية عنابة، و تعتبر من أهم مدن الجزائر(موقع ويكيبيديا: تحت عنوان عنابة).

(٢) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس: ص٢٧.

(٣) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل(ت بعد ٣٦٧هـ): صورة الأرض: دار صادر . بيروت . ١٩٣٨م ج١ ص٧٥، المهلبي، الحسن بن أحمد المهلبي العزيزي: الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك: دار التكوين . دمشق . ٢٠٠٦م ص٤٧، البكري: المسالك والممالك: ج٢ ص٧١٧.

(٤) محمد بن محمد بن عبد الله (ت٥٦٠هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: عالم الكتب . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى١٤٠٩هـ ج٢ ص٢٩١.

(٥) المهدي البوعبدلي: جوانب من تاريخ بونة الثقافي والسياسي عبر العصور: مجلة كلية الآداب . جامعة وهران . الجزائر . العدد٢٣/٢٤ عام١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م ص١٣٣، وما بعدها.

يرد ذكر هذه الحملة في المصادر العربية وإنما ورد ذكرها مختصرًا في بعض المراجع المترجمة إلى اللغة العربية، والتي لم تذكر أي تفاصيل عن أحداث الحملة، وكم استمرت، وما هو موقف الدولة الزيرية وأميرها المعز بن باديس منها؟ هل قامت بالدفاع عن المدينة؟ وتمكنت من رد هذا العدوان أم تخاذلت وتركت المدينة وأهلها يلاقون مصيرهم؟ .

يذكر أرشيبالد: أنه في عام(١٠٣٤م) "عظمت قوة بيزا[١] البحرية لدرجة جرأتها على مهاجمة مدينة بونة على الساحل الإفريقي"[٢].

(١) بيزا مدينة إيطالية و دولة مستقلة تقع في إقليم توسكانا على مقربة من البحر الأبيض المتوسط كان لها تاريخ مميز في حوض البحر المتوسط، وفي علاقاتها مع المشرق العربي في القرون الوسطى لاسيما في زمن الحروب الصليبية أخذت قوة بيزا باعتبارها دولة بحرية قوية بالتنامي، وبلغت ذروتها في القرن الحادي عشر حين اكتسبت سمعة تقليدية كإحدى أربع جمهوريات بحرية تاريخية إيطالية. Henri) Pirenne's, Economic and Social History of Medieval Europe, New Yok, P.122.، سعيد عاشور: تاريخ أوربا في العصور الوسطى: دار النهضة العربية . بيروت . ١٩٧٦م . ص٢٨٩، ٢٩٠)

(٢) أرشيبالد روس لويس:(ت١٩٩٠م): القوى التجارية والبحرية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ـ١١٠٠م) ترجمة/ أحمد عيسى . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ص٣١٤.

يفهم من ذلك: أن من قام بهذه الحملة على مدينة بونة هم أهل مدينة بيزا الإيطالية وهى إحدى

المدن التي كان لها دور كبير في مساندة الحملات الصليبية[٣] بكل ما لديها من إمكانيات اقتصادية وسياسية وذلك للحصول على امتيازات واسعة وخاصة طرق التجارة وسواحل البحر المتوسط، وكانت بيزا من ضمن المدن الإيطالية التي انتعشت قوتها البحرية ودخلت في صراع مع المسلمين[٤].

(٣) هذه المدن هي (جنوة، بيزا، البندقية) وقد كان لهم دورًا مهما في الحملات الصليبية سواء أكانت في بلاد المشرق أو المغرب وقد كانت هذه المدن تتصارع فيما بينها تجاريًا للحصول على بعض الامتيازات السياسية والاقتصادية، وتقدم كل ما عندها في توجيه الحملات الصليبية ودعمها، بل حاربت كما يحارب المتوحشون لكي تكون للمسيحيين السيادة على البحر المتوسط (ول ديورانت: قصة الحضارة: ترجمة/ زكى نجيب محمود وآخرون دار الجبل . بيروت – لبنان المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – تونس (١٠٤٨هـ/ ١٩٨٨م ج١٥ ص٧٥).

(٤) أصبحت بيزا قوة بحرية كبيرة منذ عام(٤٠٦هـ/١٠١٥م) وقد استطاعت هزيمة مجاهد العامري أمير دانية والجزائر بالأندلس في عصر ملوك الطوائف، وفى عام(٤٠٧هـ/١٠١٦م) استطاعت الاستيلاء على جزيرة سردينة الغنية بمناجم الفضة مما جعلها من وجهة نظر البيازنه غنيمة تستحق أن تمتلك (أرشيبالد: القوى البحرية: ص٣١٤، عنان،

ويذكر أرشيبالد: أن الأسباب التي جعلت أهل بيزا يغيرون على سواحل المسلمين ومدنهم هي أسباب دفاعية؛ وهى رغبتهم فقط في أن يتخلصوا من المسلمين الذين يغيرون على سواحلهم، لكنهم سرعان ما اكتشفوا أن ثمة مغانم كثيرة يمكنهم الحصول عليها لو أنهم غامروا في البحر ولهذا أخذوا هم أنفسهم منذ عام(١٠٣٤م) يحترفون القرصنة ونهب التجارة الإسلامية ومدن المسلمين الساحلية، وكانت مغانم القرصنة لا التجارة هي الدافع الأساسي لتحريك أساطيلها في القرن الحادي عشر، وقد سنحت لهم الفرصة للظهور بسبب ما انتهى إليه حال المسلمين من ضعف في النصف الغربي من البحر المتوسط [١].

وإن كنت أتفق مع أرشيبالد في أن ضعف المسلمين بوجه خاص في البحر المتوسط خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وضعفهم بوجه عام كان أحد الأسباب التي جعلت الصليبيين في أوربا بوجه عام وأهل بيزا بوجه خاص يولون وجوههم شطر بلاد المسلمين في المشرق والمغرب على السواء؛ إلا أنني أختلف معه في أن سبب قيام أهل بيزا بهذه الحملات كان سببًا دفاعيًا وهو رد غارات المسلمين على سواحلهم، ووجهة نظري تتمثل في النقاط التالية:.

١. العامل الاقتصادي: فقد كانت هناك منافسة بين المدن التجارية الإيطالية في السيطرة على الموانى والمدن الساحلية وطرق التجارة مما دفع بيزا وغيرها من المدن التجارية إلى شهوة الكسب والتوسع التجاري على حساب المدن الايطالية الأخرى.

٢. يضاف إلى ذلك الرغبة في الحصول على الغنائم من بلاد المسلمين.

٣. عدم وجود أساطيل قوية للمسلمين في البحر المتوسط خلال هذه الفترة، فمن المعروف أن الفاطميين كانوا يملكون أسطولًا قويًا في بلاد المغرب لكن بعد انتقالهم إلى القاهرة عام(٣٦٢هـ /٩٧٣م) قد أنابوا عنهم في المغرب بني زيري، ومن الواضح أن الفاطميين قد أخذوا أسطولهم معهم، فلم يبق لبني زيري في شمال إفريقيا أسطول قوي[٢] وعلى الرغم من أن المعز بن باديس[٣] شرع

محمد عبد الله (ت١٤٠٦هـ): دولة الإسلام في الأندلس: مكتبة الخانجي . القاهرة . الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ج٢ ص١٩١، وما بعدها).

(١) أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية: ص٣١٥.

(٢) أرشيبالد: القوى البحرية: ص٣١٢، سالم، السيد عبد العزيز، العبادي، أحمد مختار: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس: دار النهضة العربية – بيروت – لبنان – ١٩٦٩م ، ص١٩٥، ٢٠٠ .

(٣) المعز بن باديس بن منصور بن بلكين بن زيري بن مناد الحميري الصنهاجي صاحب إفريقية وما والاها من بلاد المغرب في الفترة(٤٠٦.٤٥٣هـ/١٠١٥.١٠٦٢م) وكان ملكاً جليلاً عالي الهمة، اشتهر برجاحة العقل كان

في بناء أسطول قوى منذ عام (٤٠٧هـ/١٠١٦م)؛ إلا إن قوة بني زيري البحرية لم تصل إلى قوة الفاطميين أو الأغالبة، وقد نجح المعز في إنشاء أسطول بحري بلغ عدد قطعه ٤٠٠ قطعة في عام(٤١٦هـ/١٠٢٥م) إلا أن هذا الأسطول قد قضت عليه العواصف وهو في طريقه لنصرة أهل صقلية من نفس العام[١] .

وفى الواقع: كان إهمال بني زيري لقوتهم البحرية وسقوط الخلافة الأموية في الأندلس وتدهور أحوالها وضعف بحرية المسلمين في البحر المتوسط من العوامل التي شجعت البيازنة إلى مهاجمة السواحل المغربية ومدنها.

مما سبق يمكن القول: إن أسباب توجه هذه الحملة وغيرها إلى بلاد المغرب لم يكن يهدف إلى الدفاع عن سواحلهم ورد غارات المسلمين وإنما كان بدافع سياسي واقتصادي.

ويبدو أن حملة بيزا على بونة كانت خاطفة لم تمكث طويلًا؛ ربما بسبب قيام الدولة الزيرية بالدفاع عن المدينة، إضافة إلى صمود أهل المدينة واستبسالهم في رد هذا العدوان.

وخلاصة القول: أن حملة أهل بيزا التي قاموا بها على مدينة بونة عام(٤٢٦هـ /١٠٣٤م) لم تحقق الهدف المرجو منها على الوجه الأكمل بسبب المقاومة التي واجهتها؛ إلا أنها أثبتت لهم ضعف المسلمين في بلاد المغرب، وأن حقيقة أمرهم ليست كما كانوا يتوهمون.

. الحملة على جزيرة جربة[٢]

محباً لأهل العلم كثير العطاء، دام حكمه ٤٧ سنة وكان موته بالمهدية(ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: تحقيق/ إحسان عباس . دار صادر . بيروت . الطبعة: الأولى ١٩٩٤م ج٥ ص٢٣٣.٢٣٥، الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء: تحقيق/مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط . مؤسسة الرسالة . بيروت . لبنان . الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ج١٨ ص١٤١، ١٤٢) .

(١) في عام (٤١٦هـ/١٠٢٦م) خرج الروم إلى جزيرة صقلية في جمع كثير، وملكوا ما كان للمسلمين في جزيرة قلورية، وهي مجاورة لجزيرة صقلية، وشرعوا في بناء المساكن ينتظرون وصول مراكبهم وجموعهم فاستنجد أهل صقلية بالمعز بن باديس فجهز أسطول كبير مكون من أربعمائة قطعة، وحشد فيها، وجمع خلقاً كثيراً، ورغب أكثرهم في ثواب الجهاد، فسار الأسطول في (يناير١٠٢٦م)، فلما قرب من جزيرة قوصرة، وهي بين المهدية وصقلية، خرجت عليهم ريح شديدة، ونوء عظيم، فغرق أكثرهم، ولم ينج إلا اليسير(ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج٧ ص٦٨٩، ٦٩٠، سالم، العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس: ص١٩٧).

(٢) ذكرها ياقوت: جَربة بالفتح ثم السكون وقد روى أيضًا جِربة بكسر الجيم، وأشار أنها "جزيرة بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس يسكنها

عام(٤٣١هـ/١٠٣٩م)

دخل الإسلام جزيرة جربة عام(٤٧هـ/٦٦٨.٦٦٧م) على يد الصحابي الجليل رويفع بن ثابت الأنصاري[١] . رضي الله عنه . وقبل أهل جربة الإسلام لما رأوا فيه السماحة والعدل والمساواة، وبعد الفتح الإسلامي لجربة دخلت تحت حكم الولاة ودام عهدهم قرابة قرن من الزمان من عام (٩٧هـ/٧١٥م) إلى عام (١٨٤هـ/٨٠٠م) عرفت خلالها الولاية عدة اضطرابات ثم دخلت تحت حكم الدولة الأغلبية (٢٩٦.١٨٤هـ/٩٠٩.٨٠٠م) ثم الفاطميين عام (٣٦٢.٢٩٦هـ/ ٩٧٣.٩٠٩م) وكانت تحت حكمهم تارة ومستقلة تارة أخرى، لكنها في أغلب الأحيان كانت مستقلة استقلالًا كاملًا، وكان يدير شئونها الدينية والسياسية بعض شيوخها المحليين، وظلت على هذا الأمر خاصة بعد انتقال الفاطميين إلى مصر عام(٣٦٢هـ/٩٧٣م) واندلاع الفتن والثورات في بلاد المغرب ضد الدولة الزيرية، وظلت جربة مستقلة عن سلطة الزيريين إلى أن قام المعز بن باديس بحملة

البربر، ولها ذكر كثير في كتاب الفتوح (معجم البلدان: ج٢ ص١١٨)، وقد تعاقبت على جزيرة جربة العديد من الحضارات، فقد دخلها الفينيقيون في القرن (١٠ق. م) والرومان عام(١٤٦ ق.م) والوندال عام (٤٢٩م)، ثم قدم إليها البيزنطيون عام(٥٣٤م) وفتحها العرب عام(٤٧هـ /٦٦٧م)، واحتلها النورمان وسوف يأتي الحديث عن ذلك في حينه (الباروني، يوسف بن أمحمد: جزيرة جربة في موكب التاريخ: تحقيق وإعداد سعيد الباروني . ص٧، وما بعدها). وجربة اليوم جزيرة تونسية تقع في جنوب شرق تونس في خليج قابس، وتعد أكبر جزر شمال أفريقيا وتلقب بجزيرة الأحلام (موقع ويكيبيديا: تحت عنوان جربة).

(١) رويفع بن ثابت بن السَّكَن الأنصاري، له صحبة، وروي عن النبي . صلى الله عليه وسلم . عدة أحاديث، وشهد فتح مصر واختطَّ بها، وكان فارسًا جَوادًا، له في المغرب فتوحًات كثيرة ولاه معاوية بن أبي سفيان . رضي الله عنه . ولاية طرابلس الغرب عام (٤٦هـ/٦٦٥م) ثم ولاه مسلمة بن مخلد ولاية مصر وبرقة، وبقي عليها حتى توفى عام ٥٦هـ وقبره ببرقة في مدينة البيضاء وهو آخر من توفى من الصحابة هناك. (ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله(ت٢٥٧هـ): فتوح مصر والمغرب: مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة .١٤١٥هـ ص١٣٦، ابن يونس المصري، عبد الرحمن بن أحمد(ت ٣٤٧هـ): تاريخ ابن يونس المصري . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ ج٢ ص١٨١، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله (ت٤٦٣هـ): الاستيعاب في معرفة الأصحاب: تحقيق/ علي محمد البجاوي . دار الجيل . بيروت . الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ج٢ ص٥٠٤، ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد(ت٨٥٢هـ): الإصابة في تمييز الصحابة: تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة: الأولى١٤١٥هـ ج١ ص٨٦).

عام(٤٣١هـ/١٠٣٩م)[١] مكنته من السيطرة عليها[٢] .

بعد استيلاء المعز بن باديس على جزيرة جربة عام(٤٣١هـ/١٠٣٨م) تعرضت لحملة صليبية من نفس العام، ولم يرد أي معلومات عن هذه الحملة في المصادر العربية إلا نص مختصر في كتاب (البيان المغرب) فقد ذكر في أحداث عام(٤٣١هـ/١٠٣٩م) قوله:

"وفى سنة(٤٣١هـ) دخلت جيوش مالطة[٣] جزيرة جربة ففتحتها وقتلت كثيرًا من أهلها"[٤].

ولم يذكر صاحب البيان المغرب أي تفاصيل عن هذه الحملة، ولم يحدد هوية المهاجمين سوى أنهم جيوش مالطة، كما أنه لم يحدد من الذي كان يحكم مالطة في ذلك الوقت وبالرجوع إلى المصادر العربية نجد أن: جزيرة مالطة فتحها المسلمون الأغالبة عام (٢٥٦.٢٥٥هـ /٨٦٩.٨٦٨م) وبقيت بعد ذلك خربة غير آهلة، وإنما كان يدخلها النشاءون للسفن والصيادون، فلما كان عام (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) عمرها المسلمون وبنوا مدينتها[٥]، وبقيت كذلك إلى أن استولى عليها النورمان عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)[٦].

ويذكر بعض المؤرخين أن جزيرة مالطة قد سقطت بيد الإفرنج عام (٣٧٢هـ/٩٨٢م) فقد ذكر ابن الأثير والنويري والذهبي في معرض حديثهم عن استنجاد ابن الثمنة[٧] بصاحب مالطةما يأتي:

---

(١) التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد(ت٧١٧هـ): رحلة التيجاني: تقديم/ حسن حسنى عبد الوهاب . الدار العربية للكتاب .ليبيا . تونس ١٩٨١م ص١٢٥ .

(٢) ظلت جربة تحت حكم بني زيري منذ ذلك العام حتى استولى عليها النورمان عام(٥٢٩هـ/ ١١٣٤م) وثار أهلها عليهم فأخرجوهم منها عام(٥٤٨هـ/١١٥١م) ثم عاد النورمان مرة ثانية عام (٥٤٩هـ/١١٥٤م) فاحتلوا الجزيرة بعد معارك تساقط فيها الكثير من الأرواح ومن نجى من أهلها أخذ غنيمة وبيع في أسواق صقلية، ولم يبق في الجزيرة إلا ضعاف الناس بقيت جربة تحت حكم النورمان حتى جاء الموحدون فاستطاعوا طرد النورمان من الجزيرة عام(٥٥١هـ/١١٥٥م)(ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج٩ ص٢٢٣، ٢٢٤، ابن خلدون: تاريخه: ج٦ ص٥٤٤، التيجانى: رحلته : ص١٢٦) .

(٣) مالطة: جزيرة من الجزائر المشهورة الّتي تلي صقلّية بينهما مجرى واحد(البكري: المسالك والممالك: ج١ ص٤٨٦، الحميري: الروض المعطار: ص٥٢٠). وهي اليوم دولة أوروبية تقع في البحر الأبيض المتوسط، وهي واحدة من أصغر دول العالم، وعاصمتها فاليتا، وهي أصغر عواصم دول الاتحاد الأوروبي(موقع ويكيبيديا: تحت عنوان مالطا).

(٤) ابن عذارى: ج١ ص٢٧٥ .

(٥) البكري: المسالك والممالك: ج١ ص٤٨٦، ٤٨٧، ابن الأثير: الكامل: ج٦ ص١٨٢، الحميري: الروض المعطار: ص٥٢٠.

(٦) أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية: ص٣٧٦، ممدوح حسين: الحروب الصليبية: ص١٥.

(٧) ابن الثمنة: محمد بن إبراهيم بن الثمنة: كان أحد رؤوس الأجناد في ولاية الصمصام بن يوسف على صقلية، وعندما اضطربت الأمور في عهد الصمصام ثار أهل بلرم عليه وأخرجوه وقدموا ابن الثمنة وتلقب بالقادر بالله وتولى صقلية خلال الفترة (٤٤٤.٤٢٧هـ) وانفرد ابن

يقول ابن الأثير(ت٦٣٠هـ): "فلما رأى ابن الثمنة أن عساكره قد تمزقت، سولت له نفسه الانتصار بالكفار لما يريده الله تعالى، فسار إلى مدينة مالطة، وهي بيد الفرنج قد ملكوها لما خرج بردويل الفرنجي[١] سنة اثنتين[٢] وسبعين وثلاث مائة، واستوطنها الفرنج، .... فساروا معه في رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة، فلم يلقوا من يدافعهم، فاستولوا على ما مروا به في طريقهم"[٣].

ويقول النويري(ت٧٣٣هـ): " كان سبب ذلك أنه لما وقعت الحرب وانهزم ابن الثمنة، سار إلى مدينة ملطية وكانت بيد الفرنج ملكوها في سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة....."[٤].

ويقول الذهبي(ت٧٤٨هـ):"....فانهزم ابن الثمنة، فسوّلت له نفسه الانتصار بالنّصارى، فسار إلى مالطة، وقد أخذتها الفرنْج بعد السّبعين وثلاثمائة وسكنوها...."[٥].

ويفهم من هذه النصوص:

أن جزيرة مالطة قد خرجت من أيدي المسلمين منذ عام (٣٧٢هـ/٩٨٢م) حيث لم يكن الحكم الإسلامي فيها مستقر، بل كانت تحت حكم المسلمين تارة، وغيرهم تارة أخرى، وما يعنينا هو عام (٤٣١هـ/١٠٣٩م) والذي جاءت فيه الحملة الصليبية على جزيرة جربة كما حدده ابن عذاري.

ولو سلمنا بصحة هذه النصوص السابقة أو حسب رواية البكري والحميري عن جزيرة مالطة والتي جاء فيها:" فلمّا كان بعد الأربعين والأربعمائة من الهجرة عمّرها المسلمون وبنوا مدينتها، ثمّ عادت أتمّ ممّا

الثمنة بمدينة سرقوسة وقطانية، وانفرد القائد علي بن نعمة المعروف بابن الحواش بقصريانة وجرجنت وغيرهما، فوقعت بينهما العداوة، وتحاربا، وجرت لهما خُطُوب، فانهزم ابن الثُمنة، وسوّلت له نفسه الانتصار بالنّصارى، فسار عام (٤٤٤هـ/١٠٥٢م) إلى الفرنج الذين بمدينة مالطة (أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي (ت٧٣٢هـ): المختصر في أخبار البشر: المطبعة الحسينية المصرية . القاهرة . الطبعة: الأولى ج٢ ص٢٠١، ابن خلدون: تاريخه: ٢٦٩/٤).

(١) ذكر الدكتور/ المدني أنه زعيم النورمان في ذلك الوقت (أحمد توفيق (ت١٤٠٤هـ /١٩٨٣م): المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا: مكتبة الاستقامة . تونس . المطبعة العربية . الجزائر ١٣٦٥هـ ص١٥٩) وهو ليس بردويل الفرنجي (بلدوين) صاحب القدس الذي قصد الديار المصرية عام (٥١١هـ) فانتهى إلى الفرما، ودخلها وأحرقها، وأحرق جامعها ومساجدها، ورحل عنها راجعًا إلى الشام وهو مريض فهلك في الطريق قبل وصوله إلى العريش (الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج١٥ ص١٩٨).

(٢) الأصح عام ٣٧١هـ (ابن الأثير: الكامل: ج٧ ص٣٨٣، ٣٨٤).

(٣) الكامل: ج٨ ص٣٤٧.

(٤) أحمد بن عبد الوهاب بن محمد(ت٧٣٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب . دار الكتب والوثائق القومية . القاهرة . الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ج٢٤ ص٣٨١.

(٥) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: ج٣٤ ص١٧.

كانت عليه، فغزاها الروم سنة خمس وأربعين وأربعمائة في مراكب كثيرة وعدد، فحاصروا المسلمين في المدينة واشتدّ الحصار عليهم وطمعوا فيهم، فسألهم المسلمون الأمان فأبوا إلّا على النساء والأموال"[١]؛ لانتهينا إلى أن جزيرة مالطة لم تكن تحت حكم المسلمين منذ عام (٣٧٢هـ/٩٨٢م) حتى عام (٤٤٠هـ/١٠٤٨م)، وذلك لأن حكم المسلمين لمالطة لم يكن مستقر، وبالتالي يتضح صحة كلام ابن عذاري أن من قام بهذه الحملة على جربة عام(٤٣١هـ/١٠٣٩م) كانت جيوش مالطة من غير تحديد هويتهم.

ولو رجعنا قليلًا إلى نص ابن الأثير، والذي يذكر فيه أن من استولى على مالطة عام(٣٧١هـ/٩٨٢م): هو بردويل الفرنجي، وقد ذكر الدكتور المدني أن بردويل هذا كان زعيم النورمان في هذا الوقت[٢].

فلو سلمنا بصحة ذلك لاستطعنا القول: إن النورمان هم من استولوا على مالطة عام (٣٧٢هـ/٩٨٢م) ويبدو أنهم من قاموا بتلك الحملة على جربة عام(٤٣١هـ/ ١٠٣٩م).

ولعل أحوال النورمان خلال هذه الفترة تؤكد ذلك حيث زاد نشاطهم في البحر المتوسط منذ عام(٤٠٧هـ/١٠١٦م) وكانوا في بادئ أمرهم يعملون كمرتزقة لصالح الدولة البيزنطية والبابوية، ثم عملوا لصالحهم وأقاموا لأنفسهم مركزا لأعمال السلب والنهب منذ عام (٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م)[٣] وقيل عام (٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م)[٤].

وليس من المستحيل أن يكون النورمان هم من قاموا بهذه الحملة المبكرة على بلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وربما كان الهدف منها السلب والنهب، إضافة إلى معرفة أحوال بلاد المغرب عن قرب، وربما كان الهدف هو الاستيلاء على الجزيرة لكنهم لم يتمكنوا من ذلك، وليس لدينا معلومات عن تفاصيل هذه الحملة، ومدى قوة المقاومة التي لاقوها، أو الغنائم التي سلبوها، ويبدو أنها كانت حملة استطلاعية تمهيدًا للحملات الكبرى التي قاموا بها بعد ذلك.

(١) المسالك والممالك: ج١ ص٤٨٧، الروض المعطار: ص٥٢٠.

(٢) المدني: المسلمون في صقلية وجنوب ايطاليا: ص١٥٩.

(٣) أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية: ص٣٧٣، عمران، محمود سعيد: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى: دار المعرفة الجامعية . الإسكندرية . مصر، ص٢٧٠.

(٤) عمران: معالم تاريخ أوربا: ص٢٧٠.

. الحملة الأولى على المهدية[١] عام (٤٨٠هـ/١٠٨٧م).

ظلت المهدية عامرة بالسكان بعد انتقال الفاطميين إلى مصر وتولى أمر المغرب بعدهم الدولة الزيرية، وقد تعرضت المهدية لبعض الحملات الصليبية حيث كانت أول حملة عام (٤٨٠هـ/١٠٨٧م) وقد كان هذا الهجوم الذي تعرضت له يختلف عما سبقه من حملات صليبية على مدن المغرب الإسلامي، وذلك لكبر حجمه ووضوح هدفه.

فيذكر ابن الأثير في حوادث عام(٤٨١هـ) أنه:" في هذه السنة فتح الروم مدينة زويلة[٢] من إفريقية، وهي بقرب المهدية، وسبب ذلك أن الأمير تميم بن المعز بن باديس[٣]، صاحبها، أكثر غزو بلادهم في البحر، فخربها، وشتت أهلها، فاجتمعوا من كل جهة، واتفقوا على إنشاء الشواني[٤] لغزو المهدية، ودخل معهم

(١) المهدية: مدينة تقع على خليج قابس، بين سوسة وصفاقس، وكانت المهدية مدينتين: المهدية ويسكنها السلطان وجنوده، وزويلة ويسكنها الناس، وتعتبر مدينة المهدية ثاني عواصم الخلافة بإفريقيا بناها عبيد الله المهدي (٣٢٢.٢٩٧هـ/ ٩٣٤.٩٠٩م) أول خلفاء الفاطميين بالمغرب وإليه تنتسب، وكان ابتداء بنائها عام (٣٠٣هـ/٩١٥م) وانتقل إليها عام (٣٠٨هـ/٩٢٠م) وجعلها دار مملكته، وكانت المهدية ذات حصانة طبيعية، فهي شبة جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزند، وقد ظلت مدينة المهدية حاضرة للدولة الفاطمية إلى أن ولى الخلافة الفاطمية إسماعيل بن القاسم بن عبيد الله (٢٣٤. ٣٤١هـ/ ٩٥٢.٩٤٥م) وتسمى بالمنصور واتخذ مدينة صيره (المنصورية) عاصمة له واستوطنها بعده ابنه معد (المعز لدين الله)(٣٦١.٣٤١هـ /٩٧٢.٩٥٢م)(البكري: المسالك والممالك: ج٢ ص٦٨٣، ٦٨٤، ياقوت: معجم البلدان: ج٥ ص٢٣٠، ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج٦ ص٦٤١، القزويني:آثار البلاد: ص٢٧٦). وهي اليوم مدينة ساحلية تونسية ومقر لولاية المهدية تقع جنوب العاصمة تونس(موقع ويكيبيديا: تحت عنوان المهدية).

(٢) زَوِيلة: مدينة بإفريقية غير مسورة في وسط الصحراء عامرة بالأسواق وأرباب الصناعات والتجارات، ولما فتحت برقة بعث عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين(البكري: المسالك والممالك: ج٢ ص٦٨٣، ياقوت: معجم البلدان: ج٣ ص١٦٠، القزويني: آثار البلاد: ص ٢٧٦) زويلة وهي اليوم قرية تقع في جنوب غرب ليبيا(موقع الموسوعة الحرة: ويكيبيديا: تحت عنوان زويلة)

(٣) تميم بن المعز بن باديس، أبو يحيى الصنهاجي: من ملوك الدولة الصنهاجية بإفريقية. ولاه أبوه المهدية سنة ٤٤٥هـ، ثم ملك إفريقية وما والاها بعد وفاة أبيه سنة ٤٥٤هـ، وكان حسن السيرة، محمود الآثار، محبًا للعلماء، وكان شجاعًا ذكيًا، له عناية بالأدب، ينظم الشعر الحسن طالت أيام ملكه فأقام ٤٦ سنة وعشرة شهور توفي ليلة السبت منتصف رجب سنة إحدى وخمسمائة (ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج١ ص٣٠٤).

(٤) الشواني: ومفردها الشيني أو الشونة، وهو المركب المعد للجهاد في البحر يمتاز بضخامة

البيشانيون، والجنوبيون، وهما من الفرنج، فأقاموا يعمرون الأسطول أربع سنين، واجتمعوا بجزيرة قوصرة[١] في أربع مائة قطعة، .....، فأراد تميم أن يسير عثمان بن سعيد[٢] المعروف بالمهر، مقدم الأسطول الذي له، ليمنعهم من النزول، فمنعه من ذلك بعض قواده، واسمه عبد الله بن منكوت[٣]، لعداوة بينه وبين المهر، فجاءت الروم، وأرسلوا، وطلعوا إلى البر، ونهبوا، وخربوا، وأحرقوا، ودخلوا زويلة ونهبوها، وكانت عساكر تميم غائبة في قتال الخارجين عن طاعته، ثم صالح تميم الروم على ثلاثين ألف دينار، ورد جميع ما حووه من السبي"[٤].

ويؤيد النويري كلام ابن الأثير في أن هذه الحملة كانت عام ٤٨١هـ كما يذكر نفس الأسباب التي أدت الى استيلاء النصارى على المهدية[٥] .

ويذكر ابن عذارى هذه الحملة عام ٤٨٠هـ فيقول:"وفي سنة ٤٨٠هـ ..... وجرى فيها ما جرى من نزول الروم على المهدية في ثلاثمائة مركبًا حربية، على ظهورها ثلاثون ألف مقاتل" ثم يضيف الأسباب التي دعت النصارى لمهاجمة المهدية فيقول "وسبب ذلك، مع قدر الله تعالى غيبة عسكر سلطانها عنها ومفاجأة الروم قبل استقدامه إليها وأخذ الأهبة للقائهم، وخلوا كافة الناس من الأسلحة والعدد وقصر الأسوار وتهدمها، وتكذيب تميم بخبرهم وسوء تدبير عبد الله بن منكور متولي أمور الدولة في قصده مخالفة قائد

الحجم، وكان متوسّط ما يحمله الشيني الواحد ١٥٠ رجلا ويجذّف بمائة، كما أنها مزودة بأهراء مخازن لحفظ الأطعمة، وصهاريج لخزن الماء العذب، ويبدو أن هذا النوع من السفن كانت تقام عليه الأبراج والقلاع للدفاع والهجوم ورمي الأعداء بقوارير النفط (سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية: ص٣٥٢، ٣٥٣).

(١) قوصرة: جزيرة في بحر الروم بين المهدية وجزيرة صقليّة، فتحها المسلمون في أيام معاوية (٤١.٦٠هـ/ ٦٦١.٦٧٩م) وبقيت في أيديهم إلى أيام عبد الملك بن مروان ثم خربت (ياقوت : معجم البلدان: ج٤ ص٤١٣) ثم فتحها القائد أسد بن الفرات واتخذها مركزًا لجيشه لفتح جزيرة صقلية المجاورة لها عام (٢١٢هـ/ ٨٢٧م) ، وظلت الجزيرة تحت حكم الأغالبة ثم الفاطميين ثم احتلها النورمان منذ(٥٨٥هـ/ ١١٨٩م)، وهي اليوم جزيرة إيطالية تعرف باسم بانتليريا (بالإيطالية: Pantelleria) تقع في مضيق صقلية في البحر الأبيض المتوسط، بين إيطاليا وتونس على بعد ٧٠ كم شرق تونس (موقع ويكيبيديا: تحت عنوان بانتليريا) .

(٢) لم أعثر له على ترجمة، ويبدو أنه كان قائد أسطول الدولة الزيرية في ذلك الوقت كما ذكر ابن الاثير: الكامل: ج٨ ص٣٢٠.

(٣) لم أعثر له على ترجمة، ويبدو أنه كان قائد من قادة الأمير تميم بن المعز ومتولي أمر الدولة الزيرية في ذلك الوقت كما ذكر ابن عذاري: البيان المغرب: ج١ ص٣٠١ .

(٤) الكامل: ج٨ ص٣٢٠ .

(٥) نهاية الأرب : ج٢٤ ص٢٢٩، ٢٣٠.

الأسطول في الخروج إليهم للقائهم في الماء ومنعهم من النزول في البر، فكان كل ذلك سبب تغلبهم على المدينتين المهدية وزويلة، ونهبهم إياهما، وقتلهم الناس فيهما، وإحراقهم بالنار ما هو مشهور بالمهدية"[١].

ويؤيد مقديش[٢] كل ما ذكره ابن عذارى.

من خلال هذه النصوص يتبين الآتي:

. إن هذا الهجوم على المهدية قامت به قوات مختلفة من الروم والبيشانيون(بيزا) والجنويون(جنوة) والفرنج، ويذكر المؤرخ الألماني فيلهلم هايد (Wilhelm Heyd) في كتابه تاريخ التجارة في العصور الوسطى:" إن هذه الحملة اشتركت فيها قوات أيضًا من أمالفي[٣] والبابوية وقد ضمت قوات أمالفي جندًا من روما"[٤] .

. كان سبب هذه الحملة كما ذكر ابن الأثير: إن الأمير تميم بن المعز أكثر من غزواته في البحر ضد الروم، فخرب كثيرًا من عمرانها وشتت أهلها، فاجتمعوا على قتاله وأخذوا في بناء أسطول كبير استمر أربع سنوات، ولما اكتمل بناؤه وسنحت لهم الفرصة قاموا بهذه الحملة.

وإن كان هذا السبب ظاهريًا؛ إلا أن الأسباب الرئيسية تتمثل في الآتي:

. الأحقاد والأطماع والدوافع الصليبية.

. التنافس التجاري والسياسي بين المدن التجارية الإيطالية.

. الدافع الديني وهو حماية الصليب المقدس ورفعه على البلدان الإسلامية، وفى مشاركة البابوية في هذه الحملة دليل على ذلك.

وبالرجوع إلى النصوص التاريخية مرة أخرى نجد أن:

. اجتماع هذه الحملة أولا في جزيرة قوصرة ويبدو أنه كان هناك اتفاقًا على ذلك.

. اختلف المؤرخون في عدد قطع أسطول الحملة فذكر ابن الأثير والنويري أن عدده أربعمائة قطعة في حين ذكر ابن عذارى ومقديش أنها ثلاثمائة، ويبدو لي أن النويري المتوفى عام (٧٣٣هـ) قد نقل عن ابن الأثير (ت٦٣٠هـ) بينما نقل مقديش (ت١٢٢٨هـ) عن ابن عذارى (ت نحو ٦٩٥هـ)

. كما قدرت الأعداد المشاركة في هذه الحملة بثلاثين ألف مقاتل، كما ذكر ابن عذاري.

. ذكرت المصادر أن هذه الحملة استطاعت السيطرة أولا على زويلة، فنهبوها ثم توجهوا إلى المهدية واستطاعوا السيطرة عليها بلا مقاومة لا من أهالي المدينة، ولا من جنود الأمير. ويعلل ابن الأثير وابن عذارى الأسباب

---

(١) البيان المغرب: ج١ ص٣٠١ .

(٢) نزهة الأنظار :ج١ ص٣٨٠، ٣٨١.

(٣) أمالفي مدينة إيطالية. تقع على رأس بحري وتطل على خليج ساليرنو. كانت أمالفي قوةً اقتصاديةً وبحرية كبيرة في العصور الوسطى بين عامي(١٢٠٠.٨٣٩) (موقع ويكيبيديا: تحت عنوان أمالفي) .

(٤) W Heyd. Histoire Du Commerce Du Levant Au Moyen Age. Leipzig.1923, Vol. 1 P. 121.

التي أدت إلى ذلك وهي:

. غيبة عسكر الأمير تميم ابن المعز[١].

. مفاجئة الروم بالقيام بهذه الحملة قبل استعداد الأمير تميم وجنوده واستقدامه إلى المهدية وأخذ الأهبة للقائهم.

. خلو كافة الناس في المهدية وزويلة من الأسلحة والعدد.

. قصر الأسوار وتهدمها.

. تكذيب تميم بخبر مجئ هذه الحملة.

. سوء تدبير عبد الله بن منكور متولي أمور الدولة والذي خالف قائد الأسطول عثمان بن سعيد الذي أراد أن يمنعهم من النزول، إلا أن ابن منكور منعه من ذلك لعداوة بينهما.

كل هذه الأسباب التي ذكرها ابن الأثير، وابن عذاري هي التي أدت إلى تغلب النصارى على زويلة والمهدية ونهبهم إياها وقتلهم الناس وإحراقهم[٢].

ويعلق أحد الباحثين على هذه الأسباب فيقول: والذي أراه أن هذا التعليل ينافي الحقيقة والواقع من عدة وجوه:

. كيف يكون أهل المهدية خلوا من السلاح والعدد، وهم المهددون في كل وقت إن لم يكن من العدو الصليبي فمن المناوئين لتميم بن المعز؟ .

. وينطبق هذا التساؤل على القول بقصر الأسوار وتهدمها وهي المدينة التي أجمعت المصادر التاريخية وحتى الغربية على حصانتها وشدة مناعتها خاصة في تلك الفترة، إذ كانت حاضرة الإمارة الزيرية، وقاعدة أسطولهم الذي نشر الرعب في كامل مياه البحر المتوسط على حد تعبير (W.Heyd)[٣]، فكلا الأمرين لا يصدقهما العقل وينفيهما المنطق.

. وأما القول بغيبة العسكر عن المدينة فإن أيًا من هذه الروايات لم تشر إلى الجهة التي كان العسكر غائبًا فيها، فلو كان الأمر كذلك؛ لأشارت رواية واحدة على الأقل لتلك الجهة[٤].

ويضيف الباحث قائلًا : إن هذه الرواية ومثيلاتها تتضمن نقضها لسببين:

الأول: لقد جاء فيها أن تميم قد كذب بخبرهم، ومعنى ذلك أنه قد علم بأمر الحملة قبل وصولها ولم يكن تميم من الحكام اللامبالين الذين لا يعدون للأمر عدته ولو من قبيل الاحتياط.

الثاني: تنسب هذه الرواية أحد أسباب هذا الاحتلال لسوء تدبير عبد الله بن منكور[٥]، أو ابن منكوت[٦](كما تسميه بعض المصادر) أنه خالف قائد الأسطول عثمان بن سعيد ومنعه من الخروج للقاء أسطول الأعداء في البحر ومنعهم من

---

(١) ابن الأثير الكامل ج٨ ص٣٢١ .

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب: ج١ ص٣٠١.

(٣) W.Heyd; Op Cit.Vol1.P.121

(٤) ممدوح حسين: الحروب الصليبية: ص١٤٢.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب: ج١ ص٣٠١ .

(٦) ابن الأثير: الكامل: ج٨ ص٣٢٠ .

النزول إلى البر، فيدل ذلك دلالة واضحة على أن أسطول تميم كان موجودًا أثناء الهجوم، وإلا فبأي شئ يريد قائده أن يخرج إلى البحر لمواجهة أسطول مكون من ٣٠٠ أو ٤٠٠ سفينة كما ورد في المصادر، إن لم يكن لديه القوة المقابلة له، وعلى ذلك إن كان هذا الأسطول موجودًا في المهدية، فهل وقف جنده موقف المتفرج من هذا الهجوم؟ .

ويقول الباحث: لذلك فإنني أعتقد: أن ما جاء في هذه الرواية ومثيلاتها لا يمثل الحقيقة بل إنها أغفلت عنصرًا هامًا وهو المقاومة الإسلامية للمهاجمين، ولما كانت هذه الروايات متأخرة نوعًا ما عن حوادث تلك الحملة فإنه من غير المستبعد أن تكون قد نقلت عن مصدر عاصرها ولم يصلنا، وهذا المصدر قد برر احتلال المهدية بهذا التبرير رهبة أو مجاملة لأمراء بني زيري، ومحاولة إخفاء الحقائق مداراة للحكام أمر شائع عند بعض المؤرخين(١).

واتفق مع الباحث في كل ما ذكره، وأقول: إن الروايات التي ذُكرت فيها تناقض، فكيف تَذكر أن من ضمن أسباب احتلال الصليبيين لزويلة والمهدية غيبة عسكر السلطان، ثم يعزى ذلك إلى مرة أخرى إلى سوء مخالفة بن منكور لقائد الأسطول ومنعه في الخروج، فوجود الأسطول ومنعه ينفي غيبة العسكر، ولو سلمنا بأن الجزء الأكبر من العسكر كان في قتال آخر ضد الخارجين عن طاعة الدولة، فلماذا لم تذكر أيًا من هذه الروايات مكان هذا القتال، ومن هم الخارجين الذين شغلوا الدولة من الدفاع عن مدنها.

ولي أن أتسأل أي عداوة هذه التي تجعل مُتولي أمور الدولة يخالف قائد الأسطول ويمنعه من القيام بواجبه والدفاع عن الدولة التي يدير أمورها؟ .

ولو سلمنا بصحة ذلك لقلنا: ربما كانت هناك خيانة من جانب ابن منكور، وسواءً أكانت هناك خيانة أم لم تكن، فلماذا لم يعاقِب الأمير الزيري تميم بن المعز متولي أمور الدولة عبد الله بن منكور على خيانته إن وجدت أو على الأقل لسوء تصرفه ومنعه قائد الأسطول من الدفاع عن المهدية وزويلة، فهذه التساؤلات الكثيرة سببها تناقض الروايات التي تذكر السبب ونقيضه في نفس الوقت لأنها نقلت عن بعضها من غير نقد وتمحيص .

ويذكر الباحث(٢): أن الأصح من هذه الروايات ومثيلاتها هو ما ورد في بعض الوثائق المسيحية: "من أن المسلمين واجهوا هذه الحملة بمقاومة شديدة، ولكن المهاجمين تغلبوا عليهم بكثرة عددهم، وعدتهم، كما استفادوا من بعض الأخطاء العسكرية التي وقع فيها المسلمون، مثل منع الأسطول من الخروج لمواجهة العدو في البحر مما مكن المهاجمين من اقتحام أسوار المدينة

(١) ممدوح حسين: الحروب الصليبية: ص١٤٣ .

(٢) ممدوح حسين: المرجع السابق : ص١٤٣

ودخولها، ومن هذه الوثائق قصيدة باللاتينية نظمها شاعر من بيزا في أعقاب هذه الحملة تناولت حوادثها وسماها Carmen in Victoriam pisanorum (أي قصيدة في انتصار البيازنة) يقول فيها ما ترجمته " بينما كانوا– أي الغزاة . واقفين ينظرون إلى الغنائم إذ أبصروا القبائل العربية تدخل زويلة– ويسميها – sibilia ففر الجنود المشاة هنا وهنالك بسرعة تفوق سرعة الرياح وحارب الفرسان بسرعة تفوق سرعة الرياح الشرقية، كان هؤلاء العرب مهرة ومحنكين في فن الكر والفر، وكانوا أسرع من على وجه الأرض في الالتفاف في دوائر، كانوا يمتطون جيادًا نحيفة . أي خفيفة . يوجهونها بأجسادهم، وقد استحوذ مائة ألف من أولئك الأشاوس على زويلة إذ فر منهم البيازنة، وزحفوا . أي العرب . نحو الشاطئ الذي اكتظ بهم وأوقعوا هزيمة بالبيازنة الذين كانوا يتولون حراسة الميناء، ولما سمع النبلاء المعسكرون في المهدية . ويسميها . madia . بما حدث انتظموا في صفوف وخفوا للنجدة بسرعة تفوق سرعة الفهود، وكان الملك تميم . ويسميه taminus . يراقب ما يجري من أبراجه الشاهقة ويتطلع بسرور إلى الأخطار المحدقة بالفئتين، إلا أن العرب لم يطمئنوا إلى أسلحتهم أو شجاعتهم بل فروا بسرعة مذهلة وتعرض من بقى منهم للقتال وجها لوجه لأسلحة البيازنة التي كانت تخرق أجسادهم كما ذبحهم البيازنة أيضا بسيوفهم(١) .

يقول الباحث: وبصرف النظر عن ما ورد في هذه القصيدة من مبالغات إلا أنه يستفاد منها أن المقاومة الإسلامية للمهاجمين كانت عنيفة إلى حد أنهم أخرجوهم من زويلة، كما أنهم اشتبكوا معهم في قتال مرير على شاطئ المهدية مما أجبر أصحابهم الذين كانوا في المهدية على الخروج منها لنجدتهم، ولعل ما ذكره D Abulafia عن هذه الحملة يؤكد ذلك إذ يقول: "وفى سنة ١٠٨٧م هاجم الأسطول الايطالي المهدية على أمل الاستيلاء عليها وبعد قتال مرير طرد الإيطاليين، ولكن ليس قبل دخولهم المدينة"(٢) .

وأقف عند هذه القصيدة التي ساقها الباحث فأقول: إن ما جاء فيها من بطولات زائفة وشجاعة منقطعة النظير للبيازنة هي من وحي خيال الشاعر، فكيف نصدق أن عدد المسلمين كان مائة ألف أو أكثر

---

(١) ممدوح حسين : المرجع السابق: ص ١٤٤ نقلا عن English history review vol 1 p 362

(٢) المرجع نفسه: ص ١٤٤ نقلا عن D.Abulafia The Two Italies: Economic Relations BETWEEN THE Norman Kingdom OF Sicily AND THE Northern Communes,London,New York,1977.P.52.

يتصفون بالمهارة والحنكة ومعرفة فنون القتال من الكر والفر وسرعة الالتفاف في دوائر ويمتطون جيادًا خفيفة كما وصفهم الشاعر، ومع كل هذه الصفات؛ إلا أنهم هزموا من عدوهم والبالغ عددهم ثلاثون ألف على تقدير ابن عذارى(١)، فكيف لثلاثين ألف أن ينتصروا على مائة ألف يتصفون بهذه الصفات التي وصفهم بها الشاعر، فهل كان البيازنة يقاتلون بسلاح ناري؟ وكيف لأمير دولة أن يقف مسرورًا وهو يشاهد الخطر الذي يهدد دولته وقد يكون هذا الخطر سببًا في سقوط الدولة وربما موت الأمير نفسه؟ وكيف لم يطمئن العرب إلى أسلحتهم أو شجاعتهم وعددهم يفوق العدو بثلاثة أضعاف؟ وكيف نكذب روايات المؤرخين المسلمين لنصدق هذه الرواية المليئة بالمبالغات، بل بالخرافات والأساطير المتمثلة في شجاعة البيازنة والذي حاول الشاعر أن ينسبها لهم؟.

لكن يمكن القول: إن أهل المهدية مع عدد قليل من الجنود هم من قاوموا هذه الحملة مقاومة شديدة، لكن لم يتمكنوا من الانتصار عليهم لتفوقهم في العدد والعدة، وقد دخل هؤلاء البيازنة المدينة فاستباحوها وأعملوا فيها القتل والتخريب والأسر والنهب، مما جعل الأمير الزيري تميم بن المعز يضطر إلى مفاوضتهم للخروج من المدينة، ولم يكن هؤلاء أيضًا أقل رغبة منه في ذلك نتيجة للمقاومة الشديدة وما كانوا يتوقعونه من وصول النجدات إلى المسلمين فأيقنوا باستحالة بقائهم في المدينة، ولذلك قبلوا المفاوضات والتي أسفرت عن الشروط الآتية:

. حصل الغزاة على فدية مالية ضخمة قدرت بمائة ألف دينار في بعض المصادر(٢)، وثلاثين ألف في أخرى(٣).

. فتح أبواب المهدية أمام تجار المدن المتحالفة لممارسة نشاطهم التجاري(٤).

. تعهد تميم بعدم التعرض لسفن المدن المتحالفة في المياه الإفريقية(٥).

. وافق تميم على إطلاق جميع الأسرى المسيحيين الموجودين لديه(٦) في حين عادت سفن الغزاة محملة بأسرى المسلمين(٧).

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب : ج١ ص ٣٠١ .

(٢) لسان الدين ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٧٧٦هـ): أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام: تحقيق/ سيد كردى حسن . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان ج٢ ص ٣٢٥، ابن خلدون: تاريخه: ج٦ ص٢١٢، مقديش: نزهة الأنظار: ج١ ص٣٨١.

(٣) ابن الأثير : الكامل : ج٨ ص٣٢١.

(٤) w, heyd, op. cit, p. 122

(٥) سالم، العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس: ص٢٠٥، ممدوح حسين: الحروب الصليبية: ص١٤٥.

(٦) w, heyd, op, cit, p. 122.

(٧) لسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام: ج٢ ص ٣٢٥، مقديش: نزهة الأنظار: ج١ ص ٣٨١.

وبعد إتمام المفاوضات عاد الغزاة من حيث أتوا ولم يحققوا إلا بعض المكاسب الاقتصادية، في حين فشلوا في تحقيق أهدافهم الأخرى مثل الاستقرار في المهدية واتخاذها قاعدة لعملياتهم المستقبلية لاستكمال احتلال إفريقيا، كما فشلوا في توجيه ضربة قاصمة للبحرية للزيرية، إذ أنها استمرت في تدعيم قوتها بحيث تمكنت في سنة (٤٩٨هـ /١١٠٤م) من صد هجوم أخر تعرضت له المهدية قام به أهالي روما، وهو عنوان الحملة القادمة.

. الحملة الثانية على المهدية عام (٤٩٨هـ/١١٠٤م).

تعرضت المهدية لحملة ثانية عام(٤٩٨هـ/١١٠٤م)، وقد ذكر ابن عذارى هذه الحملة في أحداث(٤٩٨هـ) باختصار فقال:"وفيها وصل الرمانيون[١] إلى المهدية بأجفان[٢] كثيرة حربية، تسمى الشواني، ومعهم ثمانية وعشرون مركبًا، وكان قصدهم أن يجدوا فرصة، كما وجدها الروم المتقدم ذكرهم، فقصدوا إلى باب الصناعة ليمنعوا أسطول المهدية إليهم فخاب ظنهم وخرج أسطول المهدية إليهم فهزموهم وقتلوا كثيرًا منهم[٣].

ونستنتج من هذا النص ما يأتي:

. إن من قام بهذه الحملة هم أهل روما، وكان سبب قيامهم بها رغبتهم في أن يجدوا فرصة تمكنهم من الاستيلاء على المدينة أو الحصول على الغنائم، كما فعل أسلافهم البيازنة والجنويون عندما هاجموا المهدية عام(٤٨٠هـ/١٠٨٧م) وقد سبق الحديث عن هذه الحملة والفرصة التي أتيحت لهم.

. إن هذه الحملة توجهت إلى دار الصناعة[٤] لكي يمنعوا أسطول المهدية من مهاجمتهم، لكن يبدو أن الأسطول كان في حالة يقظة هذه المرة، فلم يتمكنوا من تحقيق أهدافهم وردت هذه الحملة على أعقابها بعد أن قتل الكثير منهم وبفشل هذه الحملة

---

(١) الرمانيون: أهل روما (حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس: دار الكتب العربية . تونس . الطبعة الثالثة ص٩٦).

(٢) الأجفان: جمع جفن وجفنة، والجفن أو الجفنة سفينة حربية دائرية شبيهة بالقصعة، من سفن الغزو والحرب، كذلك استعمل الجفن إلى جانب الحروب في نقل التجارة(درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعاجم: طبعة جامعة الإسكندرية . ١٩٧٤م ص٢٣ وما بعدها).

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب: ج١ ص٣٠٢.

(٤) يقصد دار صناعة السفن والتي أقامها الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي، وكانت تسع مائتي مركب عليها باب مغلق، ويحدثنا ابن عذارى عن إعجابه بدار الصناعة بقوله " بالمهدية دار صنعه الإنشاء العجيبة يخرج الجفن مغمورا من خلف السور فلا يعلم به حتى يفاجأ العدو القاصد فيحيط به فلا يقربها العدو لآجل "(البيان المغرب : ج١ ص٢٠٧، عبد الحميد حسين حمودة : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي: الدار الثقافية – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م ص٤٠٣.

عام(٤٩٨هـ/ ١١٠٤م) تنتهي الحملات الصليبية المبكرة على بلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي .

ونستخلص مما تقدم:

أن الحملات الصليبية المبكرة لم تنجح في تحقيق أهدافها السياسية، وهى السيطرة على بلاد المغرب، أو حتى مدينة واحدة من مدنه. وذلك يرجع إلى:

. قوة الدولة الزيرية في ذلك الوقت، فقد كان يحكمها أمراء أقوياء مثل المعز بن باديس، وتميم بن المعز.

. مقاومة أهالي المدن للغزاة .

استطاعت هذه الحملات تحقيق بعض المكاسب المادية، والتي كانت تعود بها بعد كل حملة، وذلك مثل حملة عام(٤٨٠هـ/١٠٨٧م) والتي شاركت فيها قوات مختلفة من أهالي المدن الإيطالية والروم والفرنج وغيرهم، وقد صالحهم تميم بن المعز على ثلاثين ألف دينار[١].

(١) ابن الأثير: الكامل: ج٨ ص٣٢٠.

ثانيًا: حملات النورمان[٢] على بلاد المغرب خلال القرن(٦هـ/١٢م)

أدي ظهور النورمان كقوة جديدة في ميدان السياسة الدولية إلى تغيير ميزان

(٢) النورمان أو (الفيكنج) Vikings من الأمم البحرية العريقة التي تسكن في البلاد الاسكندنافية، أي السويد، والنرويج، والدانمارك الحالية. وكلمة النورمان، تعني سكان الشمال، وهي تحريف لكلمة Norsemen الإنجليزية أو Normandos الإسبانية، وقد وردت تسمية هذه الأقوام في مصادرنا العربية بأشكال مختلفة، مثل المجوس، وقد سماهم العرب المجوس لأنهم كانوا يشعلون النيران فظن العرب أنهم يعبدونها، والأردمانيون. وكان من طبيعة هؤلاء النورمان حب المغامرة وجَوب البحار بحثًا عن الأماكن الضعيفة في الشواطئ لمهاجمتها وسلبها، وقد شمل نشاطهم مناطق عديدة وشنوا الغارات على الدولة البيزنطية وفتحوا إنجلترا سنة (١٠٦٦م) على يد وليم الفاتح، وأدخلوها تحت حكمهم، كما هاجموا بلاد الإفرنج وانتصروا على البابا ليو التاسع سنة (١٠٥٣ م)، ثم حصلوا على شرعية حكمهم لجنوب فرنسا من البابا مقابل دفعهم مبلغًا من المال سنويًّا، إضافة إلى الشواطئ الأندلسية والمغربية، واستطاعوا فتح جزيرة صقلية المسلمة على يد رجار سنة (١٠٩١م) بعد حروب استمرت (٣٠) سنة، وكان لهم دور فعال في بداية الحروب الصليبية(أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأندلس والمغرب . مؤسسة الثقافة الجامعية . الإسكندرية . ص١٤٨، أبو سعيد المصري: الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي: ج١٢ ص١).

القوى في غرب البحر المتوسط لصالح القوى الصليبية فما إن استولوا على صقلية عام(٤٨٥هـ/١٠٩٢م) حتى تطلعوا إلى إفريقيا تحقيقًا لأهداف الحركة الصليبية، وقد كانت علاقة النورمان بهذه الحركة وثيقة، وبالتالي فإنهم كانوا يتربصون بإفريقيا لكي يغزوها عندما تحين لهم الفرصة يدل على ذلك ما

جاء في كتاب الكامل على لسان رجار الأول (٤٦٣.٤٩٤هـ /١٠٧٠.١١٠١م) [١] ملك النورمان:"....وبلاد إفريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها....."[٢].

وبناءً على ذلك فإن حملات النورمان لبلاد المغرب، ثم استيلائهم عليها كان تحقيقًا لأهداف الحركة الصليبية، وإذا كان النورمان لم يكن بوسعهم الإفصاح عن هذا الهدف من خلال عدم مشاركتهم في الحملات التي وجهت إلى بلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ فلأن الوقت لم يكن قد حان بعد، نظرًا للظروف التي كانت دولتهم في صقلية تمر بها من ناحية، وبلاد المغرب من ناحية أخرى، وقد وضع النورمان خططهم لتحقيق هذا الهدف دون استعجال أو استباق للحوادث لما عرف عنهم من حذر وحيطة وروية، وتحقيقًا لذلك فإنهم أقدموا على عقد معاهدة مع بني زيري عام (٤٦٨هـ/١٠٧٥م)، وقد استطاع رجار الأول من خلال تلك المعاهدة استكمال استيلائه على صقلية والتغلب على المشاكل التي واجهته، ثم تمكن من السيطرة الكاملة على جزيرة مالطة، وبذلك فرض الوجود النورماني نفسه في وسط البحر المتوسط بشكل قوي، وحينما لمست الحركة الصليبية إخفاق الحملات الصليبية في المغرب والتي قامت بها المدن الايطالية خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أدركت أنه لابد من إيجاد قوى أخرى تمتلك من الإمكانيات والقدرات أكثر من تلك التي تمتلكها هذه المدن لتحقيق أهدافها، كما لم يكن في مقدور الحركة إسناد هذه المهمة لإحدى القوى الأوربية التي كانت تستعد في تلك الآونة لغزو المشرق، فوجدت ضالتها المنشودة في النورمان، لذلك يمكن القول بأن هذا الأمر لم يكن إلا توزيع أدوار، بحيث خصصت لكل قوة من القوى الصليبية الجبهة الأكثر ملائمة لها، فالصليبيون

---

(١) رجار بن تنقرين المعروف برجار الأول، أول ملوك النورمان في صقلية (ولد عام٤٣٢هـ/١٠٤٠م) وتولى عام (٤٦٣هـ/١٠٧٠م)) وصفه الإدريسي:" بأنه الأفضل المعظم القدر السامي الفخر رجار بن تنقرين خيرة ملوك الإفرنجيين ملك جزيرة صقلية وأقام عليها في مدة ثلاثين عاما ولما صار أمرها إليه واستقر بها سرير ملكه نشر سيرة العدل في أهلها وأقرهم على أديانهم وشرائعهم وأمنهم في أموالهم وأنفسهم وأهليهم وذراريهم، ثم أقام على ذلك مدة أيام حياته إلى أن وافاه أجله المحتوم عام(٤٩٤هـ/١١٠١م) (نزهة المشتاق: ج٢ ص٥٨٩)

(٢) ابن الأثير: ج٨ ص٤١٥.

الأسبان لجبهة الأندلس، والنورمان للمغرب بعد نجاحهم في صقلية، وباقي القوى الصليبية الأوربية للمشرق، ولعل عدم مشاركة النورمان للحملة الصليبية الأولى(٤٩٠هـ/١٠٩٦م)[١] على المشرق يؤكد ذلك، إضافة إلى ذلك فإن أطماع النورمان كانت دافعًا قويًا لتوجيه حملاتهم إلى بلاد المغرب عندما تحين الفرصة، ولذلك فإن معاهدة (٤٦٨هـ/١٠٧٥م) بين رجار الأول وتميم بن المعز كانت في نظر ملك النورمان محطة لم يلبث أن يتجاوزها، فالصداقة وحسن الجوار الذين أقرتهما هذه المعاهدة لم تكونا إلا ذرًا للرماد في العيون، وصرفًا لذهن تميم عن هدفه في المغرب والذي كان لا يزال يحتفظ بقوة بحرية تستطيع التصدي لرجار الأول، علاوة على ذلك قدرة تميم على إيجاد المتاعب لرجار الأول في صقلية وجنوب ايطاليا اللتين لم يكن قد ثبت أقدامه فيهما خاصة صقلية[٢] .

لقد فرضت الظروف على رجار الأول عقد تلك المعاهدة التي لم يكن يضمر لها في نفسه أي احترام، ولم يكن يبالي بنقضها إن وجد في ذلك مصلحة له، وبناء على ذلك فان العلاقات بين النورمان وبني زيري في عهد رجار الأول كانت مرحلة إعداد للوثوب على المغرب، وبعد وفاة رجار الأول عام(٤٩٤هـ/١١٠١م) ترك لخلفائه تنفيذ هذه المهمة، وقد ظلت العلاقة متسمة بالهدوء بين النورمان وبني زيري حتى عام (٥٠٩هـ/١١١٥م) وهو العام الذي تولى فيه حكم الدولة الزيرية علي بن يحيى[٣]، وفي عهده بدأ النورمان يتطلعون إلى المغرب بعد أن أصبحت لهم السيادة في البحر المتوسط، وأخذوا يغيرون على السواحل المغربية، كما بدءوا يتدخلون في الصراع الدائر بين أمراء المغرب وساعدوا بعض حكام تلك المدن على البعض الآخر[٤].

(١) ابن الأثير: الكامل: ج٨ ص٤١٥.

(٢) ممدوح حسين: الحروب الصليبية: ص١٩٢.

(٣) علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ملك الغرب تولى الملك بعد وفاة والده وكان في سفاقس، فقدم المهدية في اليوم الثاني، وكان صارمًا حازمًا صاحب عزم وشهامة وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة(٥١٥هـ/١١٢١م) وكان إمارته خمس سنين وأربعة أشهر واثني عشر يومًا، وفوض الأمر إلى ولده الحسن والذي كان آخر سلاطينهم(ابن عذاري: البيان المغرب: ج١ ص٣٠٦، ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر (ت٧٤٩هـ) : تاريخ ابن الوردي . دار الكتب العلمية . لبنان . بيروت . الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات: تحقيق/ أحمد الأرناءوط وتركي مصطفي . دار إحياء التراث . بيروت ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م ج٢٢ ص١٩٠)

(٤) الغنيمي، عبد الفتاح مقلد: موسوعة المغرب العربي . مكتبة مدبولي . القاهرة . ١٩٩٤م ج٤ ص٨٠.

الحملة على قابس عام (٥١٠هـ/١١١٦م) [١].

كانت البداية عام(٥١٠هـ/١١١٦م) عندما ساءت العلاقة بين الأمير الزيري علي بن يحيى ورافع بن مكي[٢] حاكم قابس، بسبب رغبة الأول في احتكار التجارة البحرية، ولهذا وقف ضد رافع وطموحاته البحرية[٣] وهذا الأمر أغضب رافع وجعله يلجأ إلى ملك النورمان رجار الثاني(٥٠٦.٥٤٨هـ ١١١٢.١١٥٤م)[٤] طالبًا منه المساعدة فوعده بذلك، ويضيف التيجاني: "وعلم رافع بذلك فكتب إلى رجار صاحب صقلية يسأله الإعانة على علي ويخبره أنه إنما أنشأ تلك السفينة لبعث هدية يحب أن يهديها إليه، فبعث رجار إلى قابس أسطولًا ضخمًا لنصرة رافع..." ثم يضيف قائلًا: ".... وكان ذلك من أشد الأسباب في الوحشة التي وقعت بين رجار وعلي وابنه الحسن بعده حتى أدت إلى تغلب الروم(النورمان) على المهدية وانقراض دولة بني مناد منها"[٥].

ويبدو أن رافعًا كان من الذين لا يملكون وازعًا دينيًا ولا وطنيًا، وذلك باستنجاده برجار الثاني المتربص بالمغرب لتثبت أقدامه على سواحلها الشمالية، وبالفعل وصل أسطول النورمان إلى قابس واستقبل من قبل رافع بالفرح والسرور، ولكن الفرح لم يكتمل إذ وصل أسطول المهدية على الفور وهزمهم وملك قطعًا من أسطول رجار وقتل عددًا من رجاله.

وهكذا فشلت الحملة النورمانية الأولى والتي كانت بداية العداء بين النورمان وأمراء

---

(١) قابس، مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر، وساحل مدينة قابس مرفأ للسّفن من كل مكان، ويسكنها قبائل من البربر (ياقوت : معجم البلدان: ج٤ ص٢٨٩) وهي اليوم مدينة تونسية ومركز ولاية قابس(موقع الموسوعة الحرة: ويكيبيديا: تحت عنوان قابس)

(٢) هو رافع بن مكي بن كامل بن جامع الرياحي، ينتسبون إلى بني هلال الذين جاءوا إلى بلاد المغرب واستولوا على بعض البلدان المغربية، وحكم بنو جامع مدينة قابس تسلم الحكم بعد أبيه مكي (التيجاني: رحلته: ص٩٧، ٩٨، ابن خلدون: تاريخه: ج٦ ص٢٢١، ٢٢٢)

(٣) كان رافع قد تمكن من بناء سفينة ضخمة بساحل قابس، وكانت هذه السفينة سببا في إشعال نار الفتنة بين علي بن يحيى ورافع حيث وجد الأمير الزيري في أسطول رافع خطرا عليه لأنه سيشاركه في البحر، فقال :" لا يكون لأحد من أهل إفريقيا أن يناوئني في إجراء المراكب في البحر(التيجاني: رحلته: ص٩٨)

(٤) رجار الثاني بن رجار الأول وهو أشهر حكام صقلية في عهد النورمان وأبرزهم، تميزت سياسته بالتسامح نسبيا مع مسلمي صقلية وهي استمرار لسياسة أبيه رجار الأول (ت ٤٩٤هـ)، واستلم الحكم من أمه سنه ٥٠٦هـ/١١١٢م التي كانت وصية عليه بعد وفاة أخيه سيمون(عزيز أحمد (ت١٩٧٨م): تاريخ صقلية الإسلامية: ترجمه وقدم له / أمين توفيق الطيبي . الدار العربية للكتاب .١٩٨٠م ص٦٤)

(٥) رحلته: ص٩٨، ٩٩.

إفريقية من بني زيري، وقد كان لهذا الانتصار الذي أحرزه أسطول المهدية على نظيره النورماني سببًا في اهتمام الأمير الزيري علي بن يحيى بأسطوله وتقويته استعدادًا للحرب، فعمر عشرة مراكب حربية، وثلاثين غرابًا[١] وشحنها بالرجال والعدة[٢]، استعدادا لهجومه على قابس وطرد رافع منها، ويبدو إنه أراد أن يحسم الداء قبل استفحاله وذلك باحتلال قابس وطرد رافع منها، لذلك أعد علي بن يحيى أسطوله لمهاجمة رافع في عام(٥١١هـ/١١١٨م) والذي لم يجد ناصرًا "فأرسل جماعة من وجوه قومه راغبًا في المصالحة فلم يجبه علي إليها، فرأى أنه لا قبلَ له بقتال علي فقصد إلى القيروان"[٣].

يتبين مما تقدم: إن الحرب لم تقع بين علي ورافع، وأن الأخير فر هاربًا خوفًا من علي، في حين يذكر ابن الأثير:" إن رافعًا هاجم المهدية فانكسر وانهزم إلى القيروان، فمنعه أهلها من دخولها، فقاتلهم أيامًا قلائل، ثم دخلها، فأرسل علي إليه عسكرا من المهدية، فحصروه فيها إلى أن خرج عنها، وعاد إلى قابس، ثم إن جماعة من أعيان إفريقية من العرب وغيرهم سألوا عليًا في الصلح، فامتنع، ثم أجاب إلى ذلك، وتعاهد عليه "[٤].

ويذكر ابن عذارى هذا المعنى فقال: "نزل [رافع] على المهدية ببيوتة، ومن ساعده من عشيرته ... ووقعت الحرب بين الفريقين ... والتقى الجمعان ثم ولى رافعًا قاصدًا إلى القيروان"[٥].

ومهما يكن من أمر: فإن هذه الأحداث كانت سببًا في الوحشة بين الأمير الزيري علي بن يحيى ورجار الثاني مما جعل رجار يعد العدة لمهاجمة المهدية عام(٥١٧هـ/١١٢٣م).

. حملة النورمان الأولى على المهدية عام(٥١٧هـ/١١٢٣م)

ذكر ابن الأثير وابن عذاري ومقديش أسباب الوحشة بين الأمير الزيري علي بن يحيى ورجار الثاني فيقول ابن الأثير في عام٥١١هـ:" كان رجار، صاحب صقلية، بينه وبين الأمير علي ، صاحب إفريقية، مودة وكيدة، إلى أن أعان رافعا كما تقدم من قبل، فاستوحش كل منهما من صاحبه، ثم بعد ذلك خاطبه رجار بما لم تجر عادتهم به، فتأكدت الوحشة، فأرسل رجار رسالة فيها خشونة، فاحترز علي منه، وأمر بتجديد

(١) الأغربة سفن حربية كبيرة مثل الشواني، وسمِّيت بهذا الاسم؛ لأن رأسها يشبه رأس الغراب وتسير بالقلع والمجاديف(أبو سعيد المصري: الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي:ج١٦ ص٢٩).

(٢) سالم، العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس: ص٢١١.

(٣) التيجاني: رحلته: ص٩٩.

(٤) الكامل: ج٨ ص٦٢٣.

(٥) البيان المغرب: ج١ ص٣٠٧.

الأسطول، وإعداد الأهبة للقاء العدو، وكاتب المرابطين بمراكش في الاجتماع معه على الدخول إلى صقلية، فكف رجار عما كان يعتمده" [١].

ويقول ابن عذاري:" وفي سنة ٥١٢ وصل إلى الأمير علي بن يحيى، من قبل صاحب صقلية رجار، رسول له يلتمس تجديد العقود، وتأكيد العهود ويطلب أموالًا كانت له موقفة بالمهدية وذلك بعنف وغلظة، فرد على رسوله جواب وجبهه بالقول. فتزايدت الوحشة بينه وبين رجال، فأوسع شرًا، وحال بعد ذلك مكرِا"[٢].

ويضيف مقديش قائلًا:" ثم إنه وصل بأثر ذلك رسول لجار إلى علي يقتضي أموالًا كثيرة كانت له بالمهديّة، وكان علي عند تلك الوحشة أمسك وكلاءه فسرّحهم له علي ووجههم إليه بأمواله، فلما وصلت إليه وجّه رسولًا ثانيًا بمكاتبة فيها إغلاظ وتهديد وتقصير على العادة وإساءة أدب، فأغضب ذلك عليّا وصرف رسوله دون جواب، وبلغ عليّا أن النصراني يتهدده ويتوعده فأمر باستجداد الأساطيل والاستعداد لقتاله، فأنشأ أسطولًا قويت الأنفس به، ولم تزل الفتنة متأكدة بينهما إلى أن مات علي وولي بعده ابنه الحسن"[٣].

من هذه النصوص يتبين: أن أسباب الوحشة بين الأمير الزيري علي بن يحيى ورجار الثاني ملك صقلية كانت بسبب مساعدة رجار الثاني لرافع بن مكي[٤] والذي وجد في مساعدته فرصة للتدخل في بلاد المغرب، وبذلك تم نقض المعاهدة التي كانت بين الدولة الزيرية والنورمان منذ عام(٤٦٨هـ/١٠٧٥م).

. كما أن رجار كان قد أرسل رسولًا إلى علي بن يحيى يطلب دفع أموال كانت له في المهدية؛ لكن الرسول طلب ذلك بعنف وغلظة مما جعل الأمير الزيري يرفض إعطائه الأموال وصرفه بعد أن وبخه[٥].

. كما قام الأمير الزيري علي بن يحيى بالقبض على الوكلاء التجاريين الصقليين الموجودين في المهدية والتابعين لرجار، وسجنهم ومصادرة أموالهم، ثم أفرج عنهم بعد ذلك، وأرسلهم بالأموال إلى رجار الثاني[٦].

. ومنها أيضًا رفض الأمير الزيري علي بن يحيى مصالحة رافع بن مكي حليف رجار الثاني بل حاربه وانتصر عليه وألجأه إلى القيروان ثم أرسل جيشًا احتل قابس[٧].

. كما أرسل رجار الثاني رسوله مرة ثانية بمكاتبة فيها إغلاظ وتهديد وإساءة أدب، فأغضب ذلك عليّا وصرف رسوله دون

(١) الكامل: ج٨ ص٦٢٣.
(٢) البيان المغرب: ج١ ص٣٠٧.
(٣) نزهة الأنظار: ج١ ص٤٨٢.
(٤) الكامل: ج٨ ص٦٢٣.
(٥) البيان المغرب: ج١ ص٣٠٧.
(٦) مقديش: نزهة الأنظار: ج١ ص٤٨٢.
(٧) التيجاني: رحلته: ص٩٩

جواب، كما هدده رجار بغزو المهدية يقول ابن أبي دينار:"إن رجار بعث إليه يهدده بغزو المهدية، لكن عليا لم يخضع للتهديد، بل قابل ذلك بلهجة أشد، ومشت بينهما مراسلات بالتهديد بين الجانبين"(١).

الاستعداد للحملة:

بعد أن صارت الأمور بين الأمير الزيري علي بن يحيى ورجار الثاني من سيئ إلى أسوأ، أخذ كل منهما يستعد للحرب المرتقبة والتي لا مفر منها، وقد ذكر ابن الأثير(٢) وابن عذاري(٣) استعدادات الأمير الزيري ورجار النورماني ومجئ الحملة ويتضح من كلامهما:

أن الأمير علي قام بتجديد أسطوله، ودعمه بإنشاء قطع جديدة وضمها إليه وشحنها بالرجال والأسلحة، والمعدات وزاد في تحصينات المهدية، كما أنه كاتب يوسف بن تاشفين(٤) أمير المرابطين واتفق معه على مهاجمة صقلية، فلما رأى رجار الثاني هذه الاستعدادات الجادة كف عن مهاجمة المهدية، ومضى الأمير علي في استعداداته إلا أن وفاته عام(٥١٥هـ/ ١١٢٢م) حالت دون اشتراك الزيريين الفعلي في هذا الهجوم، وقد ترك ابنه الحسن في الحكم، لكن أسطول المرابطين قام بالهجوم على نقوطرة(٥) في العام التالي(٥١٦هـ/١١٢٢م)، ونتيجة لذلك بدأ رجار الثاني في الاستعداد للهجوم على المهدية، وتذكر بعض المراجع الأوربية: أن هجوم رجار الثاني على المهدية كان غارة انتقامية(٦).

لكن من وجهة نظري: كان الهدف منها الاستيلاء عليها تمهيدًا للسيطرة على إفريقيا،

---

(١) ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم(ت نحو١١٠٢هـ /١٦٩٠م) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس: مطبعة الدولة التونسية . تونس . الطبعة الأولى ١٢٨٦هـ ص٩١.

(٢) الكامل: ج٨ ص٦٨٦.

(٣) البيان المغرب: ج١ ص٣٠٨.

(٤) أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي أمير المسلمين وملك الملثمين كان رجلاً شجاعاً عادلاً مقداماً وَحَّد المغرب وضم الأندلس تحت مُلكه وسلطته. تولى إمارة دولة المرابطين بعد أن تنازل له ابن عمه الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني عن الملك، واستطاع إنشاء دولة مغربية قوية استمرت نحو من ثمانين عاما(٤٦٢.٥٤١هـ /١٠٧٠.١١٤٧م) وامتدت شمالا حتى تخوم أروبا، وجنوبا نحو بلاد السودان، وشرقا تجاوزت جزائر بني مزغنة قلب الجزائر الحالية، غربا حتى المحيط الأطلسي(ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٧ ص١١٢وما بعدها بتصرف، التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ أقدم العصور إلى اليوم: مطابع الفضالة . المغرب . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م المجلد الخامس دولة المرابطين ص٧).

(٥) نقوطرة : بلدة بساحل قلورية الايطالية كانت من أعمال رجار صاحب صقلية(ابن عذاري: البيان المغرب: ج١ ص٣٠٨).

(٦) Setton,K,M,Ahistory of The Crusades,London,1969-1974,Vol.2.P.20

ويؤكد ذلك ابن أبي دينار فيقول: "ومنته نفسه أن يستأصل إفريقيا"(١).

أيقن رجار الثاني أن هجوم المرابطين على نقوطرة عام (٥١٦هـ/١١٢٢م) كان بإيعاز من علي بن يحيى قبل موته، لذلك دعا رجار الثاني إلى حملة صليبية كبرى للاستيلاء على المهدية، فأجاب دعوته جموع كثيرة يقول ابن عذاري :"فاستنفر[أي رجار الثاني] أهل الروم قاطبة"(٢) ويقول ابن الأثير:" فاجتمع له من ذلك ما لم يعهد بمثله"(٣).

مسير الحملة إلى المهدية

بعد أن استكمل رجار الثاني استعداداته وجه أسطوله نحو المهدية، وقد قدرت المصادر الإسلامية هذا الأسطول بثلاثمائة سفينة تحمل ثلاثين ألف جندي وألف فارس(٤) يقودهم عبد الرحمن النصراني(٥)، وجرجي الأنطاكي(٦).

أما عن موقف الأمير الزيري الحسن بن علي من هذه الحملة:

فحينما علم بأمر هذه الحملة أخذ في التأهب للقائها فجهز جيشًا ضخمًا واستكثر من الأسلحة وشيد الأسوار، كما استقدم العرب الهلالية وجاءته الحشود من كل جهة ومكان(٧). فاجتمع له مائة ألف راجل وعشرة آلاف فارس(٨).

وقد يكون هناك مبالغة في هذا العدد؛ إلا أنه يعطي مؤشرًا على جدية استعداد الأمير الزيري الحسن بن علي على صد هذا الهجوم.

بعد أن استعد الطرفان، أرسل رجار الثاني حملته إلى المهدية، وعلى الرغم من أنه حاول إحاطة هذه الحملة بنوع من الحيطة والحذر لكي يفاجئ خصومه، إلا أن

---

(١) المؤنس: ص٨٩.

(٢) البيان المغرب: ج١ ص٣٠٨.

(٣) الكامل: ج٨ ص٦٨٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل: ج٨ ص٦٨٧، ابن عذاري: البيان المغرب: ج١ ص٣٠٩.

(٥) لم أعثر له على ترجمة في المصادر والمراجع المتاحة، ولعله كان مسلمًا ثم تنصر، أو ظل على إسلامه لكنه كان يعمل في خدمة الصليبيين صنيعة لهم بمقابل، أو خائن للمسلمين فأطلقوا عليه هذا اللفظ لكونه عميلًا للصليبيين.

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب: ج١ ص٣٠٩، ابن خلدون: تاريخه: ج٦ ص١٦١. جورج بن ميخائيل الأنطاكي (توفي٥٤٦أو ٥٤٧هـ/ ١١٥١ أو ١١٥٢م) كان جورج من الروم الملكانيين، ولد في أنطاكية، ثم انتقل مع والده ميخائيل وأمه إلى تونس، تعلم اللغة العربية وبرع في الحساب، عمل والده ثم هو نفسه في خدمة تميم بن المعز الزيري، وبعد وفاة تميم اختلف جورج مع يحيى بن تميم وغادر سرًا إلى صقلية النورمانية في ذلك الوقت، فارًا على متن سفينة من باليرمو، وتوجه مباشرة إلى القصر ليعمل في خدمة الكونت النورماني روجر الثاني، وعمل سفيرًا ، ثم مقدمًا للأسطول (ابن خلدون: تاريخه: ج٦ ص ٢١٤، موقع ويكبيديا: تحت عنوان جورج الأنطاكي).

(٧) ابن عذاري: البيان المغرب: ج١ ص٣٠٨.

(٨) ابن أبي دينار: المؤنس: ص٩٢.

علم الأمير الزيري بها واستعداده لها حال دون استفادة النورمان من عنصر المفاجأة، إضافة إلى أن هذه الحملة تعرضت وهي في طريقها إلى المهدية لعاصفة عاتية ألحقت بها خسائر فادحة، أما باقي السفن التي نجت من هذه العاصفة فقد اتجهت إلى جزيرة قوصرة واستولت عليها ونهبتها وقتلت الكثير من أهلها(١).

اتجه الأسطول النورماني بعد ذلك إلى جزيرة الأحاسي(٢)، ثم تقدموا إلى قصر الديماس(٣) واستولوا عليه، ثم استرده المسلمون بعد أن مكث فيه النورمان ستة عشر يومًا(٤).

بعد ذلك اتجه ما تبقى من النورمان برًا إلى المهدية، وعندئذ اجتمع المسلمون(٥)، وخرجوا من المدينة لمقاومة الغزاة مقاومة عنيفة، انهزم على إثرها النورمان إلى البحر وركبوا سفنهم، لكن المسلمين لم يكتفوا بذلك؛ بل تبعوهم إلى جزيرة الأحاسي، فاضطر جند النورمان إلى طلب الأمان من الحسن، لكن العرب الهلالية الذين شاركوا معه في القتال رفضوا إعطائهم الأمان، فخرج النورمان فأخذتهم سيوف بني هلال فقتل منهم عدد كبير وفر من نجا منهم إلى الجزيرة وأقلعوا بما تبقى من السفن متوجهين إلى صقلية(٦).

وهكذا فشلت هذه الحملة على المهدية للأسباب الآتية:

. الاستعدادات الجيدة التي قام بها الأمير الزيري الحسن بن علي وأبيه من قبله، وهذا يتضح من الخسارة الفادحة التي لحقت بأسطول النورمان رغم ضخامته.

. علم الأمير الزيري بهذه الحملة وخطة النورمان في الهجوم مما أفقدها عنصر المفاجأة .

. المقاومة الشعبية المتمثلة في أهالي المهدية، إضافة إلى القبائل العربية المتمرسة على القتال وخاصة قبائل بني هلال والتي كان لها دور مؤثر في صد هذه الحملة.

---

(١) ابن الأثير: الكامل: ج٨ ص٦٨٧.

(٢) الأحاسي: جزيرة على بعد عشرة أميال من المهدية (التجاني: رحلته: ص٣٣٥).

(٣) الديماس: قصر على بعد ثمانية أميال من المهدية (الإدريسي: نزهة المشتاق: ج١ ص٣٠٣).

(٤) ابن الأثير: الكامل: ج٨ ص٦٨٧.

(٥) استعان الحسن بن علي بالعرب الهلالية فقدموا أفواجا، وضربوا خيامهم قرب المدينة، وأخذت كل الاحتياطات لمواجهة هذا الهجوم الغاشم، ويذكر لنا شاعره ابن حمديس اسم قائده أبي إسحاق إبراهيم فيقول:

وقائدك الشهم الذي كان بينهم
صبيحة لاقاهم علي يده النصر
رأوا بأبي إسحاق سحقًا لجمعهم
فإبرامهم نقض ونظمهم نثر.

(ابن حمديس، عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد (ت٥٢٧هـ/١١٣٣م): ديوان ابن حمديس، تحقيق: إحسان عباس . دار صادر . بيروت . ١٩٦٠م ص٢٥٤).

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب: ج١ ص٣٠٩، التيجاني: رحلته: ص٣٣٦.

كل هذه الأسباب ساعدت على فشل هذه الحملة الصليبية التي قام بها النورمان عام(٥١٧هـ /١١٢٣م) على مدينة المهدية.

وقد أذاع الحسن نبأ هذا الانتصار في المدينة، بل تغنى به الشاعر ابن حمديس[١]، وصور انتصار المسلمين في واقعة الديماس بقوله وهو يمدح الحسن في قصيدة طويلة منها ما يأتي:

فسل عنهم الديماس تسمع حديثهم
فهم بالمواضي في جزيرته جَزْر
وما غنموا إلاّ مُنىً كذبتْ لهم
وكان لهم بالقصْرِ عن نيلها قصر
شَرَوْهُ فباعوا بالرّدى فيه أنفساً
أربحٌ لهم في ذلك البيع أم خُسْر
وقد طمعوا في الزعم أن يثبتوا له
جناحين يُضْحي منهما وهوَ النّسْر
وراموا به صيدَ البلاد وغنمها
فأضحى وقد قصّت خوافقه العشر
أُذيقوا به حصراً أذلّ عِرامهم
كما ضاق عند الموت عن نفسٍ صدر[٢]

. حملة النورمان الثانية على المهدية عام(٥٢٩هـ/١١٣٥م):

كان السبب الظاهر لهذه الحملة يتمثل في أنها جاءت نجدة للأمير الزيري الحسن بن علي والذي استعان برجار ضد ابن عمه الأمير الحمادي يحيى بن العزيز[٣]، فقد ذكر المؤرخون أنه بعد عام (٥١٧هـ/١١٢٣م) حدث صلحًا بين الأمير الزيري الحسن بن علي ورجار النورماني يقول التيجاني: "وأنشأ [رجار الثاني] في ظاهر الأمر بينه وبين الحسن صلحًا، وفي نفسه ما فيها لتتم خديعته ويتمكن من مراده"[٤].

ولعل هذا الصلح المفاجئ قد يثير التساؤل فهزيمة النورمان القاسية بقصر الديماس عام(٥١٧هـ/١١٢٣م) على يد الحسن ليست ببعيدة، فما الذي جمع بين الأمير الزيري الحسن ابن علي وبين رجار النورماني عدو الأمس؟.

وللإجابة على هذا التساؤل يمكن القول:

---

(١) ابن حمديس(٤٤٧-٥٢٧هـ/١٠٥٣-١١٣٣م) عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي أبو محمد شاعر مبدع، ولد وتعلم في جزيرة صقلية، ورحل إلى الأندلس سنة ٤٧١هـ، فمدح المعتمد بن عباد فأجزل له العطايا، وانتقل إلى إفريقية سنة ٥١٦هـ، وتوفى بجزيرة ميورقة عن نحو ٨٠ عاماً، وقد فقد بصره. (ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٣ ص٢١٢ وما بعدها، الصفدي: الوافي بالوفيات: ج١٨ ص٢٥).

(٢) ابن حمديس: ديوانه: ص٢٥٢، وما بعدها.

(٣) يحيى بن عبد العزيز بن منصور ابن الناصر بن علناس ابن حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي البربري، صاحب بجاية حكم خلال المدة (٥١٥.٥٤٧هـ/١١٢١.١١٥٢م) آخر ملوك بني حماد في بجاية، وطالت أيامه وكان مولعًا بالصيد واللهو، مستضعفا مغلبًا للنساء. (أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر:ج٣ ص٢٣، ابن خلدون: تاريخه: ج٦ ص٢٣٥)

(٤) رحلته: ص٣٣٩.

بأن المصالح هي التي جمعت بينهم، فبعد هزيمة النورمان في قصر الديماس والمهدية عام(٥١٧هـ/١١٢٣م) بقيت رغبتهم في الانتقام وحب السيطرة في تنامي مستمر، لكن رجار الثاني كان يعلم أن الوقت لم يحن بعد للاستيلاء على بلاد المغرب فأرجأ ذلك إلى فرصة مواتية وأخذ يعد العدة للحرب على المسلمين في بلاد المغرب انتظارًا لهذه الفرصة، وتشير بعض المراجع إلى تطور الأحداث، فقد قام المرابطون بغزو أراضى النورمان عام(٥٢١هـ/١١٢٧م)[١].

ولمواجهة المرابطين كان على رجار الثاني أن يوجد حلفاء يكونون عونًا له، فتحالف مع كونت برشلونة ريموند الثالث وأبرم معه معاهدة عام(٥٢٢هـ/ ١١٢٨م)[٢].

أما الأمير الزيري الحسن بن علي فكان في إمكانه أن يكون ندًا عنيدًا لرجار الثاني لولا أنه اصطدم وقتذاك مع ابن عمه يحيى بن العزيز الحمادي[٣]، إضافة إلى أنه كان يعلم أطماع رجار الواضحة في بلاد المغرب، وأنه يعد العدة حتى تأتيه الفرصة للسيطرة على بلاد المغرب، لذلك فإنه كان يفضل إنهاء حالة الحرب بينه وبين رجار الثاني لشعوره بالضعف والعجز عن مواصلة مواجهته عسكريًا وإيثاره الدعة والخلود إلى الراحة على تحمله المسئولية للدفاع عن وطنه، ولم يدر بخلده أن عدوه لن يتركه وشأنه، لذلك دارت بين الطرفين مفاوضات أسفرت عن عقد صلح بينهما فرض بموجبه رجار الثاني على الحسن شروطًا قاسية قبلها الأخير.

ويبدو أن شروط هذا الصلح لم تلق قبولًا لدى أهل المهدية، إذ وجدوا فيها مَذَلةً لهم، لذا بادروا بالاتصال بالأمير يحيى بن العزيز

---

(١) في هذا العام هجم على مدينتي باتي وسرقوسة أمير البحر المرابطي محمد بن ميمون فأخذ ما فيهما وأحرقهما، وأوشك أهل قطانية أن يتعرضوا لنفس المصير، لو لم ينتبهوا إلى ذلك فأخذوا في الاستعدادات اللازمة للدفاع عن مدينتهم (الهادي إدريس: الدولة الصنهاجية: ج١ ص٣٩٧).

(٢) الهادي إدريس: الدولة الصنهاجية : ج١ ص٣٩٧.

(٣) يذكر ابن الأثير أن سبب ذلك: هو أن الأمير الزيري الحسن بن علي أحب ميمون بن زياد أمير طائفة كبيرة من العرب، وزاده على سائر العرب، فحسده العرب فسار أمراؤها إلى يحيى بن العزيز بأولادهم، وجعلوهم رهائن عنده، وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكرا ليملكوا له المهدية، فأجابهم إلى ذلك وهو متباطيء(الكامل: ج٩ ص٦٧) بينما ذكر ابن أبي دينار: أن سبب الصدام أن الأمير يحيى بن المعز الحمادي علم أن الأمير الحسن قد صالح الملك رجار الثاني صاحب صقلية ووقعت بينهما الهدنة، وكان ذلك إن الحسن أرسل بهدية وصالحه مخافة من شره، فتم الصلح وشرط رجار الثاني شروطاً قاسية فقبلها فلم يرضى أهل المهدية بهذه الشروط وذهبوا إلى الأمير يحيى يطلبون منه تخليصهم من الحسن فأجابهم (المؤنس: ص٩٣).

الحمادي صاحب بجاية[١] طالبين منه التدخل وتخليصهم من الأمير الزيري الحسن بن علي لقبوله شروط هذا الصلح المهين، وبالفعل استجاب الأمير الحمادي يحيى بن العزيز لطلبهم سواء أكان لهذا السبب أم لأسباب أخرى كما ذكر بن الأثير[٢] وأرسل أسطوله إلى المهدية عام (٥٢٩هـ/١١٣٥م) فحاصرها برًا وبحرًا[٣] .

أما الأمير الزيري الحسن بن علي فبدلًا من أن يحاول التفاهم مع ابن عمه الأمير الحمادي يحيى بن العزيز لتوحيد جهودهما ضد العدو المتربص بهما معًا، إلا أنه فضل الاستعانة بعدوه رجار الثاني، فأرسل إليه يطلب منه المساعدة [٤].

ويبدو أن الأمير الزيري الحسن بن علي قد تخلى عن واجبه الوطني في مقاومة النورمان العدو الأول لبلاده وتحالف معهم ضد أبناء عمومته في بجاية، وكان الأجدر به أن يتحالف مع ابن عمه ضد عدوهم المشترك والمتمثل في النورمان، ومنذ ذلك الحين أصبح رجار الثاني يتحكم في الإمارة الزيرية من الناحية السياسية والاقتصادية، لاسيما وأن صقلية كانت تمد بلاد المغرب بما تحتاجه من الحبوب خاصة القمح [٥] .

وبالفعل انتهز رجار الثاني هذه الفرصة وقام بإرسال أسطوله إلى المهدية، وعندما ظهر أسطول النورمان في مياه المهدية لم يجد قائد أسطول الحماديين مطرف بن حمدون بدًا من فك الحصار عن المهدية والانسحاب إلى بجاية بعد مناوشات استمرت سبعين يومًا[٦]، وأراد قائد الأسطول النورماني انتهاز الفرصة والقضاء على أسطول الحماديين؛ لأن كلا المتخاصمين عدو لرجار الثاني فعزم على إغراقه[٧]، ولكن الأمير الزيري الحسن بن علي منعه من ذلك، لأنه كره سفك دماء المسلمين[٨].

وبعد رحيل الأسطول النورماني إلى صقلية كاتب الأمير الزيري الحسن بن علي ملك النورمان رجار الثاني ليشكره على فعله ويقدم له الإذعان والخضوع وأنه دخل تحت

---

(١) سبقت الإشارة إليها.

(٢) ذكر ابن الأثير أن سبب ذلك: أن الأمير الزيري الحسن بن علي أحب ميمون بن زياد أمير طائفة كبيرة من العرب، وزاده على سائر العرب، فحسده العرب، فسار أمراؤها إلى يحيى بن العزيز بأولادهم، وجعلوهم رهائن عنده، وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكرا ليملكوا له المهدية، فأجابهم إلى ذلك وهو متباطئ، فاتفق أنه وصله كتب من بعض مشايخ المهدية بمثل ذلك، فوثق بما أتاه، وسير عسكرًا كثيفًا عليهم، وقائدًا كبيرًا من فقهاء أصحابه يقال له مطرف بن حمدون (الكامل: ج٩ ص٦٧).

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب: ج١ ص٣١٢.

(٤) ابن أبي دينار: المؤنس: ص٩٠ بتصرف.

(٥) الهادي إدريس: الدولة الصنهاجية : ج١ ص٤٠٨.

(٦) التيجاني: رحلته: ص٣٤٠، ابن أبي دينار: المؤنس: ص٩٠.

(٧) ابن الأثير: الكامل: ج٩ ص٦٨، ابن أبي دينار: المؤنس: ص٩٠.

(٨) ابن أبي دينار: المؤنس: ص٩٠.

أمره ونهيه[١]، وهذا اعتراف صريح من الحسن بتبعيته لرجار الثاني.

ولنتوقف قليلًا لنعرض أهم المكاسب التي اكتسبها رجار من هذه الحملة:

١. كانت أولى المكاسب التي حققها رجار من هذه الحملة هي الاستيلاء على السفن الراسية في ميناء المهدية بما تحمله من سلع، حيث ذكر التيجاني:" أنه كان لرجار جواسيس بالمهدية فكتبوا إليها يعلمونه أن بمرساها مراكب قد استوفت وسقها[٢] فأمر جرجير قائد الأسطول المتوجه للنصرة بالهجوم عليها وأخذها ففعل ذلك غدرًا وحملها إلى صقلية"[٣]، فكانت هذه السفن بما تحمله من بضائع أول مغانم رجار الثاني.

٢. فرض الحماية النورمانية على بلاد المغرب حيث أن الأمير الحسن بن على بعد رحيل الأسطول النورماني إلى صقلية كاتب رجار يشكره على فعله وأنه دخل تحت أمره ونهيه[٤].

(١) المصدر نفسه .

(٢) الوسق: مصدر وسق ووسقت الشئ: جمعته وحملته (الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: تحقيق/ أحمد عبد الغفور عطار . دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة: الرابعة . ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ج٤ ص١٥٦٦) ووسقت السفينة: أي حملت بالبضائع وشحنت (موقع المعاني الجامع: مادة وسق https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/) .

(٣) رحلته : ص٣٤٠ .

(٤) ابن أبي دينار: المؤنس: ص٩٠.

٣. كما كان من أهم مكاسب هذه الحملة لرجار أنها كانت البداية لاحتلال بلاد المغرب الخارجة عن طاعة الأمير الزيري، ففي نفس العام(٥٢٩هـ/١١٣٥م) أرسل رجار الثاني أسطولًا هاجم جزيرة جربة، وانتقل للحديث عن تفاصيل هذه الحملة .

. حملة النورمان على جربة (٥٢٩هـ/١١٣٥م):

ذكرت بعض المصادر العربية[٥] أسباب هذه الحملة ويمكن تلخيص ما جاء فيها على النحو التالي:

كان سبب احتلال جزيرة جربة كثرة القرصنة فيها، وتعدي أهلها على المسافرين في البحر، ورغم كل المحاولات للحد من هذا النّشاط استعصى أمر الجزيرة على الزيريين حتى عندما كانت دولتهم قوية، ولم يتغلب عليها إلا النصارى النورمان عام (٥٢٩هـ/١١٣٥م) [٦].

وفي حقيقة الأمر: لم تكن غاية النورمان إخضاع أهل جزيرة جربة وإنهاء القرصنة بها فقط؛ بل إخضاع بلاد المغرب وسواحلها تحت سيطرة النورمان، فبعد نجدة النورمان للأمير الزيري الحسن بن علي والتي تمثلت في حملتهم على المهدية عام(٥٢٩هـ/١١٣٥م) ضد ابن عمه الأمير الحمادي يحيى بن العزيز واعتراف

(٥) ابن الأثير: الكامل: ج٩ ص٦٨، ابن عذاري: البيان المغرب: ج١ ص٣١٢، التيجاني: رحلته: ص١٢٦.

(٦) التيجاني: رحلته: ص١٢٦.

الحسن بتبعيته له، وجد رجار الثاني في هذا الاعتراف الصريح من الحسن الفرصة لاحتلال بلاد المغرب، فلم تمض أشهر قليلة على حملته على المهدية؛ إلا وقد أرسل حملة أخرى إلى جزيرة جربة من نفس العام.

ولي أن أتسأل حتى وإن كانت هذه الصفات موجودة في أهل جربه فكيف يعطى رجار لنفسه الحق في محاسبتهم وعقابهم وهم غير تابعين لدولته ولا داخلين تحت حكمه؟ أليس هذا العقاب من حق الأمير الزيري الذين يخضعون لدولته وحكمه، وهل عجز الأمير الزيري عن محاسبتهم فطلب من رجار الثاني ذلك؟.

إن غاية النورمان الحقيقية من هذه الحملة كانت تتمثل في البحث عن موضع قدم يمكنهم من تحقيق هدفهم الأساسي وهو السيطرة الكاملة على بلاد المغرب والتحكم في الطرق البحرية التي تفصل المغرب عن أوربا، وكانت هذه الجزيرة الواقعة في الجنوب تشرف على البحر الأبيض المتوسط الذي نشأت على سواحله جميع الحضارات، ولها ارتباطات قديمة بعالم البحار وبها ميناء تجاري هام في حوض البحر المتوسط وهمزة وصل بين إفريقيا السوداء وأوروبا البيضاء، إضافة إلى ذلك كانت رغبة النورمان تتمثل في جعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة نورمانية.

غير أن موقف سكان جربة من هذه الحملة كان إيجابيًا، فقد تصدى هؤلاء للغزاة يدافعون عن أنفسهم فقاتلوهم قتالًا شديدًا حتى قتل منهم خلق كثير، لكن العدو استطاع دخول الجزيرة وارتكب في أهلها الفظائع فقتل كثيرًا من رجالها وسبى كثيرًا من نسائها، ودخلت الجزيرة تحت طاعة رجار الثاني وولى عليها عاملًا من قبله ومن بقى منهم كتب لهم أمانًا [١].

ولي أن أتسأل: ما قيمة هذا الأمان بعد أن تعرضت الجزيرة وأهلها إلى أشد أنواع التعذيب والتشريد والنهب والقتل؟ كما لم تذكر المصادر موقف الأمير الزيري الحسن بن علي من هذه الحملة، والذي لم يحرك ساكنًا بالرغم من أن الجزيرة كانت من ممتلكاته، ويبدو أنه قد تعلل بضعفه أمام النورمان، أو ارتباطه معهم بعهود، وقد ذكرت بعض المصادر أن الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله[٢]

---

(١) ابن الأثير: الكامل: ج٩ ص٦٨، ابن خلدون: تاريخه: ج٥ ص٢٣١.

(٢) هو أبو الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد ابن المستنصر بالله معد بن الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي العبيدي الفاطمي، الثامِن من خلفاء مصر من بني عبيد، والحادي عشر منهم ممن ولي من آبائه ببلاد المغرب، ولد بعسقلان سنة (٤٦٧هـ) وبويع بالخلافة عام(٥٢٤هـ) بعد قتل الآمر، ولقب بالحافظ لدين الله، وتوفى عام (٥٤٣هـ)(الصفدي: الوافي بالوفيات: ج١٩ ص٨٦، المقريزي: اتعاظ الحنفاء: ج٣ ص١٣٧، ابن تغري بردي: مورد اللطافة :ج١ ص٨٨، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة:

(٥٤٣.٥٢٤هـ/١١٤٩.١١٣٠م) اعترض على احتلال جزيرة جربة وأنه أرسل رسالة لرجار الثاني مستنكرًا ذلك[١] جاء فيها:

"..... وأما ما ذكرته من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجربة لما شرحته من عدوان أهلها، وعدولهم عن طرق الخيرات وسبلها، واجترائهم في الطّغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلها، واستعمالهم الظّلم تمرّدًا، وتماديهم في الغيّ تباهيًا في الباطل وغلوّا، يأسًا من الجزاء لمّا استبطأوه، فإنّ من كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية، وخليق أن يأخذه الله من مأمنه أخذة رابية، كما أنه من كان من أهل السلامة، وسالكًا سبيل الاستقامة؛ ومقبلًا على صلاح شأنه، وغير متعدّ للواجب في سرّه وإعلانه؛ تعيّن أن نوفّر من الرعاية سهمه، ونجزل من العناية نصيبه وقسمه، ويؤمّن مما يقلقه ويزعجه، ويقصد بما يسرّه ويبهجه، ويصان عن أن يناله مكروه، ويحمى من أذى يلمّ به ويعروه....."[٢].

بعد قراءة هذه الرسالة يتضح أنها كانت ردًا على رسالة أخرى أرسلها رجار الثاني للخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله يشرح له فيها بعض الأمور، ويبرر له احتلاله لجزيرة جربة.

وعلى الرغم من اعتراض الخليفة الفاطمي على احتلال جربة، لكنه لم يحرك ساكنًا، وكأن الاعتراض فقط كان وما زال سمة بعض حكام المسلمين عبر التاريخ.

وخلاصة القول: فإن جزيرة جربة قد خضعت بعد هذه الحملة للنورمان، واتخذها رجار الثاني قاعدة لعملياته، فكانت البداية لاحتلالهم بلاد المغرب بعد ذلك.

حملات النورمان على سواحل بلاد المغرب (٥٣٦-٥٤٣هـ/١١٤١.١١٤١م)

ظل الصلح قائمًا بين الأمير الزيري الحسن بن على ورجار النورماني لمدة ست سنوات(٥٣٠.٥٣٦هـ/١١٣٥. ١١٤١م) كان كلما اشتط أثنائها رجار الثاني بمطالبه قابله الحسن بالخضوع، ويصف ابن أبى دينار هذا الوضع بقوله:" وتشمخ اللعين . رجار . بأنفه، والحسن في غالب أوقاته يدافعه عن نفسه بالتي هي أحسن"[٣] وقد استمر الوضع على هذا الحال حتى كانت سنة

وزارة الثقافة والإرشاد القومي . دار الكتب . مصر ج٥ ص٢٣٧).

(١) حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس: مكتبة مدبولي القاهرة – الطبعة الثانية ١٩٨٧م ص ١٧٩ .

(٢) القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد(ت٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا: تحقيق / يوسف علي طويل . دار الفكر . دمشق . الطبعة الأولى ١٩٨٧م ج٦ ص٤٤٨.

(٣) المؤنس : ص٩٠ .

(٥٣٦هـ/١١٤١م) فساءت العلاقة بينهما وكان السبب في ذلك ما يأتي:

أن الحسن كان قد أخذ بعض الأموال من وكلاء رجار وماطل في تسديدها، فما كان من رجار إلا أن أرسل قائده جرجي الأنطاكي في أسطول مكون من خمس وعشرين سفينة إلى مرسى المهدية واستولى على ما بها من سفن، ومن بينها سفينة كان الأمير الزيري الحسن قد أعدها وشحنها بالذخائر الملكية ليوجهها إلى الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله، وكان هذا المركب يسمى بنصف الدنيا(١)، فأبى إلا أن يكون الحسن عاملًا من عماله(٢)، فوافق على ذلك، وفى عام (٥٣٧هـ/ ١١٤٢م) كانت الفرصة قد تهيأت لرجار لتنفيذ مخططه الصليبي وهو الاستيلاء على بلاد المغرب، فقد فرغ من مشاكله في أوربا(٣) ووجه كل اهتمامه لبلاد المغرب التي كانت الأمور فيها تسير لغير صالح المسلمين، فانتهز رجار الفرصة وأخذ يوجه أسطوله إلى بلاد المغرب الساحلية بقيادة جرجي الأنطاكي .

(١) ابن عذارى: البيان المغرب: ج١ ص٣١٣، التيجاني: رحلته: ص٣٤٠، ابن أبى دينار: المؤنس: ص٩٠.

(٢) ممدوح حسين: الحروب الصليبية: ص٢٠٩.

(٣) حيث أخضع ثورة البارونات عام (٥٣٦هـ/١١٤١م) وعقد مع البابا أنوسنت الثاني سلام ميجانو عام (٥٣٥هـ/١١٤م) (نفس المرجع السابق: ص٢٠٩).

. الحملات النورمانية على طرابلس الغرب(٤) (٥٣٧.٥٤٠هـ/ ١١٤٢.١١٤٥م).

تعرضت طرابلس لعدة حملات نورمانية أسفرت في النهاية إلى الاستيلاء عليها، وكانت أولى هذه الحملات عام(٥٣٧هـ/١١٤٢م) .

وكانت أسبابها كما ذكرت المصادر العربية(٥) تتمثل في الآتي:

. عدم طاعة أهل طرابلس للأمير الزيري الحسن بن على.

. استقلال بني مطروح(٦) بحكم طرابلس.

وبناءً على ذلك أرسل رجار الثاني أسطولًا للاستيلاء على طرابلس عام(٥٣٧هـ/١١٤٢م) غير أن هذه الحملة لم يكتب لها النجاح، وذلك لحصانة المدينة

(٤) سبقت الإشارة إليها.

(٥) ابن الأثير: الكامل:ج٩ ص١٢٤، ابن عذاري: البيان المغرب: ج١ ص٣١٣.

(٦) بني مطروح، أسرة طرابلسية قربها حاكم طرابلس محمد بن خزورن بعد توليه الحكم عام(٤٨٨هـ/١٠٦٧م) ثم سيطرت على الأمور في طرابلس بعد ضعف بني خزرون وصاروا هم حكام المدينة (الطرابلسي، أحمد بك الأنصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب: مكتبة الفرجاني . طرابلس الغرب . ليبيا ص١٢٣، إحسان عباس: تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري: دار ليبيا للنشر . بنغازي . الطبعة الأولى ١٩٦٧م . ص ١٣٧).

من ناحية، واستعداد بني مطروح للدفاع عن المدينة وعن أنفسهم من ناحية أخرى، فضلًا عن الدور الذي قامت به بعض القبائل العربية كبني هلال وبني سليم لنجدة أهل طرابلس من ناحية ثالثة، ونتيجة لهذه الأسباب رجع الأسطول النورماني وهو يجر أذيال الخيبة والهزيمة، غير أن رجار الثاني لم ييئس من السيطرة على طرابلس، ويبدو أن السيطرة على هذه المدينة كانت ضمن أهدافه الصليبية نظرًا لأهميتها التجارية، وتنفيذًا لهذه السياسة فإنه عاود الكرة على طرابلس مرة ثانية عام (٥٣٩هـ/١١٤٤م) لكن هذه المرة بقوة صغيرة كان الهدف منها استطلاع دفاعات المدينة والتمويه[١] وبصورة مفاجئة وخاطفة للتأكيد على أن رجار الثاني لا يزال بإمكانه السيطرة على طرابلس الغرب من ناحية أخرى، وقد ذكر ابن الأثير هذا المعنى قائلًا :" كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل سرية في البحر إلى طرابلس الغرب وتلك الأعمال، فنهبوا وقتلوا[٢].

ظل رجار الثاني بعد ذلك يتحين الفرصة للاستيلاء على طرابلس، والذي بدأت الأمور تسير فيها من سيء إلى أسوأ، ففي عام (٥٤٠هـ/١١٤٥م) اجتاحت مدينة طرابلس مجاعة عظيمة قضت على الكثير من أهلها وحملت الكثير منهم على النزوح خارج المدينة[٣] إضافة إلى الفتنة الداخلية التي حدثت بطرابلس، حيث ثار أهلها ضد بني مطروح وأخرجوهم منها وولوا عليهم رجلًا من المرابطين[٤].

استغل رجار الثاني هذه الظروف التي أحاطت بمدينة طرابلس الغرب لتنفيذ مخططه للاستيلاء عليها، فأمر أسطوله بالتوجه إليها عام(٥٤٠هـ/١١٤٥م) واختلف المؤرخون في العام الذي سقطت فيه المدينة فيجعله ابن الأثير[٥] وأبو الفداء[٦]، وابن أبى دينار[٧]، في حوادث عام ٥٤١هـ.

بينما ذكر ابن خلدون روايتين لاستيلاء النورمان على طرابلس الغرب الأولى عام ٥٤٠هـ[٨] والثانية عام ٥٤١هـ[٩].

أما الإدريسي فقد ذكر أن استيلاء النورمان على طرابلس الغرب كان عام ٥٤٠هـ حيث يقول: "واستفتحها الملك المعظم رجار في سنة أربعين وخمس مائة فسبى حريمها وأفنى رجالها..."[١٠].

ولعل رواية الإدريسي هي الأقرب للصواب؛ لأنه كان يعيش في كنف رجار

(١) سالم، العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس: ص٢١٦.
(٢) الكامل: ج٩ ص١٣٣.
(٣) التيجاني: رحلته: ص٢٤١.
(٤) ابن الأثير: الكامل: ج٩ ص١٤٠.
(٥) الكامل: ج٩ ص١٤٠ .
(٦) المختصر: ج٣ ص١٨.
(٧) المؤنس: ص٩١.
(٨) تاريخه: ج٦ ص ٢٢٣.
(٩) ابن خلدون: المصدر نفسه: ج٥ ص٢٣٢.
(١٠) الإدريسي: نزهة المشتاق: ج١ ص٢٩٧.

وشاهد عيان على تلك الأحداث.

ويبدو أن هذه المدينة كانت محصنة بشكل جيد فلم يستطع النورمان الاستيلاء عليها عامي (٥٣٧، ٥٣٩هـ/١١٤٢، ١١٤٤م) وفي عام (٥٤٠هـ/١١٤٥م) حاصروها لعدة أيام، ولم يستطيع النورمان الدخول إليها؛ إلا بعد انشغال أهلها بخلافات داخلية انتشرت فيما بينهم، مما أدى إلى تعثرهم في الدفاع عنها، وبالتالي دخل النورمان المدينة واستباحوها وقتلوا منها الكثير، ثم أعطوا الأمان لمن بقى فيها، وولوا عليها رجلًا من بني مطروح(١).

ويبدو أن المدينة قد تعرضت للخراب والدمار على أيدي النورمان بدليل أنهم أقاموا فيها ستة أشهر فأصلحوا أسوارها وخنادقها، ويبدو أيضًا أن الأمور في طرابلس لم تكن مستقرة مما دفع النورمان إلى أخذ رهائن معهم، ولم يتم إرجاعهم إلا بعد استقرار المدينة.

ويفهم من نص ابن الأثير(٢): أن النورمان حاولوا تغير هوية المدينة فعملوا على تشجيع الهجرة إليها فهاجر إلى طرابلس عدد من الصقليين واستوطنوا فيها، وهذا العمل يمثل نزعة استيطانية استعمارية مبكرة، وربما كان الهدف منها أن رجار الثاني كان يمني نفسه بتأسيس إمبراطورية نورمانية صليبية تشمل صقلية وبلاد المغرب.

ومهما يكن من أمر فقد سقطت طرابلس الغرب في أيدي النورمان، ثم توالى سقوط المدن المغربية الواحدة تلو الأخرى.

. استيلاء النورمان على قرقنة(٣)(٥٤٠هـ/١١٤٥م)

ذكر ابن الأثير أن النورمان هاجموا جزيرة قرقنة عام(٥٤٠هـ)، فقتلوا الرجال وسبوا الحريم(٤). ويبدو أن الأمير الزيري الحسن بن علي قد علم بنوايا رجار الثاني ومطامعه في بلاد المغرب، فأرسل إليه يذكره بمعاهدة الصلح التي قد تمت بينهم عام (٥٣٠هـ/١١٣٥م) لكن رجار الثاني أقنعه بأن سبب هذه الحملة عدم طاعة أهل قرقنة لبنى زيري، ويبدو أن الأمير الزيري الحسن بن علي اقتنع بهذا المبرر، ولم يحرك ساكنًا

(١) عين جرجي الأنطاكي أبا يحيى رافع بن مطروح التميمي واليًا على طرابلس الغرب تحت تبعية النورمان، وقد دامت هذه التبعية حوالي ثلاثة عشر عامًا (٥٤٠ . ٥٥٣هـ/١١٤٥.١١٥٨م) (التليسي، خليفة محمد (ت٢٠١٠م): حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب: الدار العربية . تونس . ١٩٧٤م . ص٤٨) .

(٢) الكامل: ج٩ ص١٤٠ .

(٣) قرقنة، جزيرة على الساحل الشرقي لمدينة تونس، تقابل صفاقس(البكري: المسالك والممالك: ج٢ص٦٦٩، ياقوت : معجم البلدان: ج٤ص٣٢٩)، وهي اليوم مجموعة جزر تعرف بجزر قرقنة: تقع شرقي البلاد التونسية على مسافة ٣٢ كم من سواحل صفاقس(موقع الموسوعة الحرة: ويكيبيديا: تحت عنوان قرقنة).

(٤) الكامل: ج٩ ص١٣٩ .

تجاه هذه الحملة.

ويبدو أيضًا أن أمراء بني زيري قد أهملوا جزيرة قرقنة رغم قربها من المهدية، وربما كان السبب في ذلك هو تمردهم ضد بني زيري حيث كانت قرقنة تمثل مركزًا من مراكز القلق والتمرد لأمراء الدولة الزيرية، ولعل هذا يفسر عدم تدخل الأمير الزيري الحسن بن على لما حدث فيها، ولم يقدم يد العون لأهل الجزيرة، وقد سهل هذا استيلاء النورمان على الجزيرة ودخولها تحت طاعة رجار النورماني، ويذكر ابن أبى دينار: "أنه لما استولى النورمان على جزيرة قرقنة سبوا أهلها وباعوهم في أسواق صقلية كما يباع العبيد، ومن سلم منهم رجع لها ودخل تحت حماية النورمان"[١] .

. الاستيلاء على المهدية عام(٥٤٣هـ/١١٤٨م)

برزت أهمية المهدية بالنسبة للمشروع الصليبي النورماني بعد احتلالهم طرابلس الغرب عام (٥٤٠هـ/١١٤٥م) حيث تحولت الغارات النورمانية في بلاد المغرب من غارات القرصنة إلى حملات منظمة استمرت لسنوات حتى تمكنت من السيطرة على ساحل بلاد المغرب، وقد كان رجار الثاني يمنى نفسه بالسيطرة على المهدية عاصمة الدولة الزيرية؛ إلا أن معاهدة الصلح التي أبرمها مع الأمير الزيري الحسن بن على كانت تمنعه من ذلك، وكان رجار الثاني حينما يستولى على أي مدينة أخرى من بلاد المغرب يتعلل للأمير الزيري بعدم طاعة أهلها له، لكن الاستيلاء على المهدية ليس له مبرر، فهي عاصمة الدولة الزيرية، ومكان إقامة الأمير الزيري، إضافة إلى أن أهلها يدينون بالولاء والطاعة لبنى زيري، فليس هناك حجة لرجار الثاني في الهجوم عليها، واستمر الأمر كذلك حتى كان عام (٥٤٢هـ/١١٤٧م) حينما عرض صاحب مدينة قابس رشيد بن كامل[٢] أن يدخل تحت طاعة رجار الثاني مقابل ولايته على قابس، فقبل رجار الثاني ذلك العرض في حين عارضه الأمير الزيري الحسن بن على، وبعد وفاة رشيد عمد مولى له اسمه يوسف إلى ابنه الصغير محمد فولاه الأمر وأخرج ولده الكبير معمر[٣]، والذي فر إلى أخواله

(١) المؤنس: ص٩١ .

(٢) رشيد بن كامل بن جامع، وبنوا جامع ينتسبون إلى بني هلال الذين جاءوا إلى بلاد المغرب واستولوا على بعض البلدان المغربية، وحكم بنو جامع مدينة قابس وكان أمرائهم على الترتيب ١. بكر بن كامل بن جامع، ٢. رافع بن بكر،٣. رشيد بن كامل، ٤. محمد بن رشيد بن كامل، ٥. مدافع بن رشيد بن كامل . لعله معمر الذي ذكره ابن الأثير . (ابن خلدون: تاريخه: ج٦ ص٢٢١، ٢٢٢).

(٣) ابن الأثير : الكامل : ج٩ ص ١٥١.

من بني قرة[١] واستولى يوسف على قابس وحكم على محمد لصغر سنه[٢] واستبد بالأمر وأساء في معاملة الناس، كما اعتدى على امرأة من بني قرة، فاتجه بنو قرة ومعمر بن رشيد إلى الأمير الزيري الحسن بن علي واستنجدوا به، فخاطب الحسن يوسف في تسليم المرأة فامتنع بل هدد الأمير الزيرى بتسليم قابس إلى رجار الثاني ملك النورمان، فاضطر الحسن إلى تجهيز حملة لمواجهة يوسف والذي أرسل بدوره إلى رجار يطلب منه أن يرسل إليه الخلع والعهد بولاية قابس مقابل أن يكون نائبًا عنه، وقد استنكر ابن أبى دينار هذا المسلك الذي سلكه يوسف فقال: "قلت أعوذ بالله من الخذلان، وإلا كيف تعد هذه الطائفة من حزب المسلمين، وإنما هي من حزب الشيطان لكن حب الشئ يعمى ويصم"[٣].

قام الأمير الزيرى الحسن بن على بتجهيز حملة عسكرية هاجم بها قابس، وكان ذلك في الوقت الذي ثار فيه أهل قابس على يوسف عندما علموا بموالاته للنورمان، واستطاعوا القبض على يوسف وتسليمه للحسن فعذب عذابًا شديدًا، وولى معمر بن رشيد على قابس وأخذ بنو قرة امرأتهم، وكان ليوسف هذا شقيق يسمى عيسى استطاع الهرب واتجه إلى رجار الثاني وأخبره أن ما حدث لأخيه يوسف كان بسبب ولائه له ودخوله في طاعته، ولهذا غضب رجار الثاني واستغل فرصة قتل حاكم قابس يوسف، واستنجاد أخيه عيسى به من ناحية، ومن ناحية أخرى استغل الغلاء الشديد الذي ضرب بلاد المغرب منذ عام(٥٣٧هـ/١١٤٢م) مما أدى إلى حدوث مجاعة عظيمة عام (٥٤٣هـ/١١٤٨م) وكثر الموت مما جعل سكان المدن المغربية يغادرونها إلى صقلية، فجهز أسطوله بقيادة جرجي الأنطاكي ويتكون من مائتين وخمسين سفينة مملوءة بالرجال والسلاح والأقوات، وسار الأسطول حتى وصل إلى جزيرة قوصرة، وقد صادف وجود مركبًا زيريًا قادمًا من المهدية، ويبدو أن هذا المركب كان لاستطلاع وصول النورمان، إلا أن قائد النورمان أخذ هذا المركب وما عليه، وكان في المركب قفص حمام . يبدو أنه من الحمام الزاجل المستخدم في الرسائل . ففهم جرجي الأنطاكي أنها مركب مراقبة قادمة من المهدية، فأراد أن يستغل الموقف لصالحه، وأن يقوم بخدعه حربية بحيث لا يُمكّن الأمير الزيري الحسن بن على ومن معه من الدفاع عن المدينة فيأتيها بغتة، فبعد ما علم من صاحب الحمام أنه لم يرسل أي رسائل للأمير الزيري؛ طلب منه أن يرسل إليه برسالة يوهمه فيها أن أسطول النورمان المخذول قد اتجه إلى جزائر

---

(١) ذكر ابن خلدون أنهم بطن متسع من بطون بني هلال، إلا أنهم مفترقون في القبائل والمدن وحدانًا (تاريخ ابن خلدون: ج٦ ص٣٥).

(٢) ابن الأثير : الكامل: ج٩ ص ١٥١، التيجانى: رحلته: ص١٠٠.

(٣) ابن أبي دينار: المؤنس: ص٩١.

القسطنطينية، وبالفعل تم له ما أراد، ووصلت الرسالة إلى الأمير الزيري الذي سُر بها هو وأهل المهدية، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فقدر الله سبحانه وتعالى أن يرسل عليهم ريحًا عظيمًا فلم يستطيعوا الوصول إلى المهدية إلا بالتقديف، في نهار اليوم الثاني من صفر عام (٥٤٣هـ/١١٤٨م) فرآهم الناس، ولما أيقن جرجي الأنطاكي أن محاولته الخبيثة والخادعة قد باءت بالفشل أرسل إلى الأمير الزيري الحسن بن على يخبره "بأنه جاء طالبًا بثأر صاحب قابس محمد بن رشيد ورده إليها أما أنت فبيننا وبينك عهود وميثاق ونريد منك عسكرًا يكون معنا"(١).

ويبدو أن الأمير الزيري الحسن بن علي كان على يقين بأنه لا طاقة له بمواجهة النورمان، لذلك جمع الفقهاء والأعيان وشاورهم في الأمر، فأشار عليه البعض بالدفاع عن المدينة، إلا أنه اعتبر ذلك مجازفة لا فائدة منها، كما أنه في الوقت نفسه لم يقبل باقتراح جرجي الأنطاكي الذي يقضى بأن يبعث إليه جنودًا إلى قابس لقتال إخوانه المسلمين، وقد أبدى رأيه هذا للفقهاء والأعيان فقال:" وأنا أرى سلامة المسلمين من الأسر والقتل خيرًا من الملك، وقد طلب مني عسكرًا إلى قابس، فإذا فعلت فما يحل لي معونة الكفار على المسلمين، وإذا امتنعت يقول: انتقض ما بيننا من الصلح، وليس يريد إلا أن يثبطنا حتى يحول بيننا وبين البر، وليس لنا بقتاله طاقة، والرأي أن نخرج بالأهل والولد ونترك البلد، فمن أراد أن يفعل كفعلنا فليبادر معنا، وأمر في الحال بالرحيل...."(٢) .

وقد يرى البعض أن تصرف الحسن هذا فيه هروب من المسئولية وتخاذل في الدفاع عن مدينة المهدية، وكان الأجدر به أن يدافع عنها حتى النهاية، وبذلك يكون الاستشهاد في سبيل الله والوطن أفضل من الهرب والاستسلام للنورمان.

لكن في رأيي: أن ما فعله الأمير الزيري الحسن بن على هو عين الصواب فقد حافظ على دماء المسلمين وعدم إراقتها، فربما لو دافع عن المدينة لحدثت كارثة وقتل الكثير من المسلمين وربما انتهكت أعراضهم، وأخذ من بقى منهم ليباع في أسواق صقلية.

وعلى كل حال: فقد دخل النورمان المدينة دون مقاومة تذكر، ودخل جرجي قصر المهدية فوجده على حاله لم يأخذ منه الحسن إلا ما خف من ذخائر الملوك ورأى الخزائن مملوءة بالذخائر النفيسة، وتعرضت المدينة للنهب ثم نودى بعدها بالأمان وخرج من كان متخفيًا ورجع من كان خارج المدينة.

أما عن مصير الأمير الزيري الحسن بن علي فيذكر المؤرخون: أنه سار بأهله وأولاده، وكانوا اثني عشر ذكرًا غير الإناث، وخواص خدّامه، قاصدًا إلى قلعة الْمُعَلقَة(٣)

(١) ابن الأثير: الكامل: ج٩ ص ١٥٥.

(٢)ابن الأثير: المصدر السابق: ج٩ ص ١٥٦.

(٣) المعلقة: قلعة حصينة بإفريقية تجاور تونس

وصاحبها مُحرز بن زِيَاد[١] فأقام عنده قليلاً[٢].

وبذلك سقطت دولة بني زيري على يد النورمان عام(٥٤٣هـ/١١٤٨م) بعد أن حكمت بلاد المغرب ما يقرب من مائتي سنة منذ عام (٥٤٣.٣٦٢هـ/ ١١٤٨.٩٧٣م)، ولم يبق للنورمان إلا الاستيلاء على بقية من المدن المغربية.

٧. الاستيلاء على صفاقس وسوسة(٥٤٣هـ/١١٤٨م)

في عام(٥٣٨هـ/١١٤٣م) هاجم النورمان مدينة صفاقس وتختلف المصادر التاريخية في نتيجة هذا الهجوم، فابن عذاري يقول في سنة ٥٣٨هـ، أن النورمان" دخلوا مدينة سفاقس ودخلت في عمل رجار صاحب صقلية"[٣].

بينما يذكر الإدريسي أن ذلك كان عام ٥٤٣هـ فيقول:" وافتتحها الملك المعظم رجار في عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة من سني الهجرة"[٤]، ولعل هذه الرواية هي الأقرب للصواب لكون الإدريسي شاهدًا على الأحداث، ويؤيده في ذلك ابن الأثير[٥] وابن خلدون[٦] .

ويمكن التوافق بين رواية ابن عذاري والروايات الأخرى، وذلك بأنه من الممكن أن تكون صفاقس قد دخلت في طاعة رجار الثاني عام(٥٣٨هـ/١١٤٣م) وأن أهلها خلعوا طاعته بعد ذلك، فأرسل جرجي جيشه مرة ثانية بعد استيلائه على المهدية عام(٥٤٣هـ/١١٤٨م) فاستولى عليها وضمت إلى ممتلكات النورمان.

ويتضح من نص ابن الأثير[٧]:

كان يسكنها قوم من العرب يعرفون ببني زياد، لما استولى عبد المؤمن بن علي على إفريقية قبض على أميرهم محمد بن زياد وضرب عنقه.(الصفدي: الوافي بالوفيات: ج١٢ ص٢٥، الحميري: الروض المعطار: ص٤٦٢).

(١) محرز بن زياد الفارغي أحد أمراء العرب من بني عليّ إحدى بطون رياح الهلاليين الذين حكموا قلعة المعلقة، مات مقتولا عام ٥٥٦هـ على أيدي الموحدين (ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٦ ص٢١٧. ٢١٩، ابن خلدون: تاريخه: ج٥ ص٢٣٣، ج٦ ص٢١٩).

(٢) ذكر المؤرخون أن الحسن لما ظهر له الضجر والسآمة من محرز بن زياد أراد الرحيل إلى مصر لكنه علم أن جرجي الأنطاكي يتربص به للقبض عليه فعدل عن ذلك ورحل إلى ابن عمه يحيى الحمادي صاحب بجاية، فأمر الأخير بالعدول به إلى جزائر بني مذغنة حيث أقام بها حتى افتتحها عبد المؤمن خليفة الموحدين فأكرمه واصطحبه معه إلى المغرب، ثم صحبه معه في غزواته إلى إفريقية، وبعد استيلائه على المهدية أسكن بها الحسن، ثم استدعاه يوسف بن عبد المؤمن فارتحل بأهله يريد مراكش، وهلك بتامسنا سنة ست وثمانين وخمسمائة.(ابن الأثير: الكامل: ج٩ ص١٥٧. ٢٦١، ابن خلدون: تاريخه: ج٦ ص٢١٥، مقديش: نزهة الأنظار: ج١ ص٤٨٧، ٤٨٨).

(٣) البيان المغرب: ج١ ص٣١٣.

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق: ص٢٨١.

(٥) الكامل: ج٩ ص١٥٨.

(٦) تاريخه: ج٥ ص٢٣٤.

(٧) الكامل: ج٩ ص١٥٨.

أن النورمان دخلوا مدينة سوسة من غير قتال، وذلك لأن أمير سوسة وهو علي بن الحسن قد سار على نهج أبيه الأمير الزيري الحسن بن علي وقام بالخروج من المدينة وإفراغها، فدخلها النورمان بدون مقاومة.

أما أهل صفاقس فإنهم أبدوا مقاومة شديدة بمساعدة بعض القبائل العربية، فلما رأى النورمان ذلك لجاؤا إلى أسلوب المكر والخديعة فتظاهروا بالهزيمة حتى أبعدوا عن المدينة، وظن أهلها أنهم تركوها بلا رجعة، لكن النورمان أعادوا الكرة عليهم واستطاعوا السيطرة على صفاقس بعد قتال شديد، وقتلوا الكثير من أهلها وأسر من تبقى من الرجال وأخذ النساء سبايا، ثم نودي بالأمان، فعاد أهلها إليها ورفق بهم وبأهل سوسة والمهدية.

ويذكر ابن الأثير: أنه لما استقرت أحوال البلاد سار جرجي الأنطاكي بأسطوله يريد الاستيلاء على قلعة إقليبية[١]، لكن العرب اجتمعوا ومنعوه من ذلك، وقاتلوا النورمان قتالًا شديدًا وقتلوا منهم الكثير وعاد النورمان يجرون أذيال الهزيمة إلى المهدية، لكنهم قد ملكوا بلاد المغرب من طرابلس الغرب إلى قُرَيْبِ تونس، ومن المغرب إلى دون القيروان[٢].

وبذلك تكون الحملات الصليبية النورمانية قد حققت هدفها بالاستيلاء على بلدان المغرب وسواحله خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وأسقطت دولة بني زيري وبانتهاء الدولة الزيرية لم تنته الحملات الصليبية على بلاد المغرب، حيث تعرضت لحملات أخرى عبر عصورها المختلفة.

(١) قلعة إقليبية أو قليبية من أحصن قلاع إفريقية (ابن الأثير: الكامل: ج٨ ص٥٥٨) تقع في شمال تونس و وتبعد عن العاصمة بحوالي ١٠٥ كم، و تشرف على عرض البحر الأبيض المتوسط من الجانب الشماليّ الشرقي، و يعود بناؤها إلى الفترة البونية أي من سنة ٢٥٦ إلى ١٤٦ قبل الميلاد، ثم أعيد تشييدها من قبل البيزنطيين في القرن السادس الميلادي، ثم شيدت مرّة أخرى من قبل الأغالبة في القرن التاسع الميلادي، ثم من قبل بني زيري (٥٤٣.٣٣٦هـ/ ١١٤٨.٩٧٣م)(موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة تحت عنوان قلعة قليبية / (https://ar.wikipedia.org/ /wiki

(٢) ابن الأثير: الكامل: ج٩ ص١٥٨.

نتائج البحث

في نهاية البحث يمكن القول: إن بلاد المغرب شهدت صراعا إسلاميًا صليبيًا مريرًا بدءً من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فقد كانت ميدانًا نشطت فيه قوى العدوان الصليبي، وقد تمثل في حملات عديدة وجهت إليه الواحدة تلو الأخرى، ولم تفتر للصليبيين في ذلك همة، ولم يوهن الفشل لهم عزيمة حتى استطاعوا في النهاية من احتلال المغرب وإسقاط الدولة الزيرية، وقد توصل الباحث إلى عدة نتائج أهمها ما يلي:

١. أثبتت الدراسة أن الحملات الصليبية على بلاد المغرب لم تكن مجرد حركة هامشية في العصور الوسطى، بل كانت حركة محورية محددة الأهداف والمعالم.

٢. بينت الدراسة فشل الحملات الصليبية المبكرة على بلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ويرجع أسباب هذا الفشل إلى قوة ويقظة الدولة الزيرية وأسطولها خلال ذلك القرن، ولم تجن هذه الحملات سوى بعض المكاسب المادية فقط.

٣. كشفت الدراسة عن الصراع الدائر بين أمراء المغرب، والذي أدى إلى ضعف الدولة الزيرية مما جعلها غير قادرة على مقاومة الحملات الصليبية، بل وفي بعض الأحيان تم الاستعانة بهم ضد إخوانهم من أمراء المغرب، وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

. إستعانة رافع بن مكي حاكم قابس بالنورمان ضد الأمير الزيري علي بن يحيى مما أدى إلى إرسال حملة إلى قابس عام(٥١٠هـ/١١١٧م) لمساندة رافع، ولكن كان مصيرها الفشل.

. استعانة الأمير الزيري الحسن بن علي بالنورمان ضد ابن عمه يحيى بن عبد العزيز الحمادي حاكم بجاية مما جعل النورمان يرسلون حملتهم عام (٥٢٩هـ/١١٣٥م) .

. استعانة عيسى شقيق يوسف حاكم قابس بالنورمان بعد مقتل أخيه وقد انتهز رجار الثاني هذه الفرصة وأرسل حملته عام (٥٤٣هـ/١١٤٨م) والتي أدت إلى استيلائهم على المهدية وسقوط الدولة الزيرية، ثم السيطرة على بلدان المغرب.

٤. كشفت الدراسة عن مدى تخاذل بعض الأمراء الزيريين في الدفاع عن مدنهم وأهليهم، ويؤكد ذلك تخاذل الأمير الزيري الحسن بن علي أثناء حملتي النورمان على جزيرة جربة عام (٥٢٩هـ/١١٣٥م) وعلى قرقنة عام(٥٤٠هـ/١١٤٥م).

٥. أكدت الدراسة أن الفاطميين في مصر لم يحركوا ساكنًا تجاه الغزو النورماني لبلاد المغرب، ولم يؤثر عنهم أي رد فعل سوى الاعتراض فقط على استيلاء النورمان على جزيرة جربة عام (٥٢٩هـ/١١٣٥م)

٦. بينت الدراسة النزعة الاستعمارية المبكرة، والتي تمثل امتدادًا لنزعة الحروب الصليبية في المشرق، والتي قامت بقصد

استعمار المشرق العربي، ويتضح ذلك من تشجيع رجار الثاني للهجرة إلى المدن التي استولوا عليها مثل طرابلس الغرب عام(٥٤٠هـ/١١٤٥م) فهاجر إليها عدد من المستثمرين ومنحوا الكثير من الامتيازات، فقد منحهم مساكن وأراضي زراعية وقروض مالية، كما حاول النورمان طرد أهالي المدن المحتلة إلى الصحراء.

٧. بينت الدراسة دور أهالي بعض المدن في المقاومة الشديدة للغزاة، والتي أتت بنتائج إيجابية مما جعل هذه الحملات التي واجهت مقاومة لم تحقق أهدافها السياسية، وذلك مثل:

. دور أهالي المهدية في الدفاع عنها عام(٤٨٠هـ/١٠٨٧م).

. دور أهالي جربة ومقاومتهم للغزو النورماني عام(٥٢٩هـ/١١٣٥م).

٨. كشفت الدراسة عن الدور الذي قامت به بعض القبائل العربية كبني هلال وبني سليم لنجدة أهل المهدية خلال حملة النورمان عليها عام(٥١٧هـ/١١٢٣م)، ولنجدة أهل طرابلس أثناء حملة النورمان على طرابلس عام (٥٣٧هـ/١١٤٢م).

٩. كشفت الدراسة عن حالة الصراع والانقسام التي أصابت المسلمين في بلاد المغرب مثل الصراع الدائر بين حكام قابس والدولة الزيرية، وقد أدى هذا الصراع إلى الاستعانة بالنورمان وسقوط الدولة الزيرية وعاصمتهم المهدية عام(٥٤٣هـ/١١٤٨م) ثم سقوط مدن المغرب الواحدة تلو الأخرى في أيدي النورمان.

كانت هذه بعض النتائج التي توصل إليها الباحث.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

(أ)

ابن أبي دينار(أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم)(ت نحو١١٠٢هـ /١٦٩٠م):*

١. المؤنس في أخبار إفريقية وتونس: تونس . ١٢٨٦هـ.

*ابن الأثير(أبو الحسن علي بن أبي الكرم) (ت٦٣٠هـ):

٢. الكامل في التاريخ: تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري . دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان . الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .١٠ أجزاء.

*الإدريسي (محمد بن محمد بن عبد الله) (ت٥٦٠هـ):

٣. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: عالم الكتب . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى١٤٠٩هـ جزءان.

*إسحاق بن الحسين المنجم (ت ق ٤هـ):

٤. آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان . عالم الكتب . بيروت . الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ .

*الاصطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد) (ت٣٤٦هـ):

٥. المسالك والممالك . الهيئة العامة لقصور الثقافة . القاهرة .

(ب)

*ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد) (ت٧٧٩هـ):

٦. رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار): أكاديمية المملكة المغربية . الرباط .١٤١٧هـ ٥أجزاء.

*البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد) (ت ٤٨٧هـ):

٧. المسالك والممالك: دار الغرب الإسلامي . ١٩٩٢م جزءان.

(ت)

*ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي)(ت٨٧٤هـ):

٨. مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة: تحقيق/ نبيل محمد عبد العزيز . دار الكتب المصرية . القاهرة جزءان.

٩. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي . دار الكتب . مصر ١٦ جزء.

*التيجاني(أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد) (ت٧١٧هـ):

١٠. رحلة التيجاني: تقديم/ حسن حسنى عبد الوهاب . الدار العربية للكتاب . ليبيا . تونس ١٩٨١م

(ج)

الجوهري(أبو نصر إسماعيل بن حماد)(ت ٣٩٣هـ): *
١١. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: تحقيق/ أحمد عبد الغفور عطار . دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة: الرابعة . ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ٦ أجزاء.
(ح)
*ابن حجر (أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد)(ت٨٥٢هـ):
١٢. الإصابة في تمييز الصحابة: تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة: الأولى١٤١٥هـ ٨ أجزاء.
*ابن حمديس (عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد) (ت٥٢٧هـ):
١٣. ديوان ابن حمديس، تحقيق: إحسان عباس . دار صادر . بيروت . ١٩٦٠م .
*الحميري(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم)(ت٩٠٠هـ):
١٤. الروض المعطار في خبر الأقطار: تحقيق/ إحسان عباس . مؤسسة ناصر للثقافة . بيروت . الطبعة: الثانية١٩٨٠م.
*ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل)(ت بعد ٣٦٧هـ):
١٥. صورة الأرض: دار صادر . بيروت . ١٩٣٨م . جزءان.
(خ)
*ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) (ت٨٠٨هـ):
١٦. العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (المعروف بتاريخ ابن خلدون): تحقيق/ خليل شحادة . دار الفكر . بيروت . لبنان . الطبعة: الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م . ٨أجزاء.
*ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن محمد) (ت٦٨١هـ):
١٧. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: تحقيق/ إحسان عباس . دار صادر . بيروت . الطبعة: الأولى ١٩٩٤م . ٧ أجزاء.
(ذ)
*الذهبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد) (ت٧٤٨هـ):
١٨. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري . دار الكتاب العربي . بيروت . الطبعة: الثانية١٤١٣هـ/١٩٩٣م . ٥٢ جزء.
١٩. سير أعلام النبلاء: تحقيق/مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناءوط . مؤسسة الرسالة . بيروت . لبنان . الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م . ٢٥ جزء.
(س)
*السلاوي (شهاب الدين أحمد بن خالد بن محمد) (ت١٣١٥هـ):
٢٠. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: تحقيق/ جعفر الناصري، محمد الناصري . دار

الكتاب . الدار البيضاء . المغرب . ٣ أجزاء.

(ص)

*الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) (ت٧٦٤هـ):

٢١. الوافي بالوفيات: تحقيق/ أحمد الأرناءوط وتركي مصطفي . دار إحياء التراث . بيروت ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م . ٢٩ جزء.

(ع)

*ابن عبد البر(يوسف بن عبد الله بن محمد) (ت٤٦٣هـ):

٢٢. الاستيعاب في معرفة الأصحاب: تحقيق/ علي محمد البجاوي . دار الجيل . بيروت . الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م . ٤ أجزاء .

*ابن عبد الحق (عبد المؤمن بن عبد الحق) (ت ٧٣٩هـ):

٢٣. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع . دار الجيل . بيروت . الطبعة الأولى . ١٤١٢هـ ٣أجزاء.

*ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) (ت٢٥٧هـ):

٢٤. فتوح إفريقية والأندلس: تحقيق/عبد الله أنيس الطباع . دار الكتاب اللبناني . بيروت . ١٩٦٤م .

٢٥. فتوح مصر والمغرب: مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة .١٤١٥هـ .

*ابن عذاري المراكشي (أبو عبد الله محمد بن محمد) (ت نحو ٦٩٥هـ):

٢٦. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: تحقيق ومراجعة/ ج. س. كولان، ليفي بروفنسال . دار الثقافة . بيروت . لبنان . الطبعة الثالثة ١٩٨٣م . جزءان .

*العمري (أحمد بن يحيى بن فضل الله) (ت٧٤٩هـ):

٢٧. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: المجمع الثقافي . أبو ظبي . الطبعة: الأولى١٤٢٣هـ ٢٧ جزء .

(ف)

*أبو الفداء(عماد الدين إسماعيل بن علي) (ت٧٣٢هـ):

٢٨. المختصر في أخبار البشر: المطبعة الحسينية المصرية . القاهرة . الطبعة الأولى ٤أجزاء.

*ابن الفوطي(كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق) (ت٧٢٣هـ):

٢٩. مجمع الآداب في معجم الألقاب: تحقيق: محمد الكاظم . مؤسسة الطباعة والنشر – وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي . إيران . الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ٦ أجزاء .

(ق)

*القزويني(زكريا بن محمد بن محمود) (ت٦٨٢هـ):

٣٠. آثار البلاد وأخبار العباد: دار صادر . بيروت .

*القلقشندي(أحمد بن علي بن أحمد) (ت٨٢١هـ):

٣١. صبح الأعشى في صناعة الإنشا: تحقيق/ يوسف علي طويل . دار الفكر . دمشق . الطبعة الأولى ١٩٨٧م . ١٥ جزء .

(ل)

*لسان الدين ابن الخطيب(أبو عبد الله محمد بن عبد الله) (ت٧٧٦هـ):

٣٢. أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام: تحقيق/ سيد كردى حسن . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . جزءان.

(م)

*مجهول، كاتب مراكشي (توفي ق ٦هـ):

٣٣. الاستبصار في عجائب الأمصار: دار الشؤون الثقافية . بغداد . ١٩٨٦م .

*المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر) (ت٨٤٥هـ):

٣٤. اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء: تحقيق/ جمال الدين الشيال، محمد حلمي المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . لجنة إحياء التراث الإسلامي . الطبعة الأولى . ٣ أجزاء.

*المهلبي (الحسن بن أحمد) (ت٣٨٠هـ):

٣٥. الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك: دار التكوين . دمشق . ٢٠٠٦م .

(ن)

*النويري (أحمد بن عبد الوهاب بن محمد) (ت٧٣٣هـ):

٣٦. نهاية الأرب في فنون الأدب . دار الكتب والوثائق القومية . القاهرة . الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ . ٣٣ جزء.

(و)

*ابن الوردي (عمر بن مظفر بن عمر) (ت٧٤٩هـ)

٣٧. تاريخ ابن الوردي: دار الكتب العلمية . لبنان . بيروت . الطبعة الأولى١٤١٧هـ/١٩٩٦م جزءان.

(ي)

*ابن يونس المصري(عبد الرحمن بن أحمد) (ت ٣٤٧هـ):

٣٨. تاريخ ابن يونس المصري . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى١٤٢١هـ جزءان.

*ياقوت(شهاب الدين أبو عبد الله) (ت٦٢٦هـ):

٣٩. معجم البلدان : دار صادر . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٩٥م ٧ أجزاء.

ثانيًا: المراجع العربية والمعربة

*أرشيبالد (روس لويس) مؤرخ أمريكي(ت١٩٩٠م):

٤٠. القوى التجارية والبحرية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة .

*إدريس (الهادي روجي) مؤرخ فرنسي من أصل تونسي:

٤١. الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الميلادي: ترجمة/ حمادي الساحلي . دار الغرب الإسلامي . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى ١٩٩٢م . جزءان.

*التازي (عبد الهادي) سياسي وكاتب ومؤرخ مغربي(ت٢٠١٥م):

٤٢. التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ أقدم العصور إلى اليوم: مطابع الفضالة . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

*التليسي (خليفة محمد) مؤرخ ليبي (ت٢٠١٠م):

٤٣. حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب: الدار العربية . تونس . ١٩٧٤م.

*حسن (حسن علي):

٤٤. المغرب الإسلامي: ضمن الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي . المكتبة الشاملة .

*حسن(حسني عبد الوهاب):

خلاصة تاريخ تونس: دار الكتب العربية . تونس . الطبعة الثالثة.

*حسين (ممدوح حسين):

٤٥. الحروب الصليبية في شمال أفريقية وأثرها الحضاري(٧٩٢.٦٦٨هـ /١٣٩٠.١٢٧٠م): دار عمار. عمان . الأردن . الطبعة الأولى١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

*حمودة (عبد الحميد حسين) مؤرخ مصري:

٤٦. تاريخ المغرب في العصر الإسلامي: الدار الثقافية . القاهرة. الطبعة الأولـ ١٤٢٨هـ /٢٠٠٧م.

*دبوز (محمد بن علي بن عيسى) كاتب ومؤرخ جزائري(ت١٩٨١م):

٤٧. المغرب الكبير: مؤسسة تاوالت الثقافية .٢٠١٠م ٣ أجزاء.

*درويش النخيلي:

٤٨. السفن الإسلامية على حروف المعاجم: طبعة جامعة الإسكندرية . ١٩٧٤م

*ديورانت (ول) مؤرخ وكاتب أمريكي (ت١٩٨١م):

٤٩. قصة الحضارة: ترجمة/ زكى نجيب محمود وآخرون دار الجبل . بيروت . لبنان . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . تونس ١٠٤٨هـ/ ١٩٨٨م . ٤٢ جزء .

*الزاوي (الطاهر أحمد) مفتي ومؤرخ ليبي (ت١٩٨٦م):

٥٠. تاريخ الفتح العربي في ليبيا: دار المدار الإسلامي . بيروت . لبنان . الطبعة الرابعة ٢٠٠٤م .

*سالم (السيد عبد العزيز) مؤرخ مصري(ت٢٠٠٣م):

٥١. تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس: دار النهضة العربية . بيروت . لبنان .١٩٦٩م .

*سعاد ماهر:

٥٢. البحرية في مصر الإسلامية: دار الكاتب العربي . الطبعة الأولى١٩٦٧م.

*الصلابي (علي محمد) مؤرخ ليبي:

٥٣. صفحات من التاريخ الإسلامي: الدولة الفاطمية: مؤسسة اقرأ . القاهرة . الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

*الطرابلسي (أحمد بك الأنصاري):

٥٤. المنهل العذب في طرابلس الغرب: لندن . ١٩٨٤م.

*عاشور (سعيد عبد الفتاح) مؤرخ مصري(ت٢٠٠٩م):

٥٥. تاريخ أوربا في العصور الوسطى: دار النهضة العربية . بيروت . ١٩٧٦م .

*العبادي (أحمد مختار) مؤرخ مصري(ت٢٠١٦م):

٥٦. في تاريخ الأندلس والمغرب . مؤسسة الثقافة الجامعية . الإسكندرية.

*عباس(إحسان) مؤرخ فلسطيني(٢٠٠٣م):

٥٧. تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري: دار ليبيا للنشر . بنغازي . الطبعة الأولى ١٩٦٧م.

*العربي (إسماعيل) مؤرخ جزائري(ت١٩٩٧م):

٥٨. المدن المغربية: المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر.١٩٨٤م.

*عزيز أحمد، مؤرخ باكستاني(ت١٩٧٨م):

٥٩. تاريخ صقلية الإسلامية: ترجمه وقدم له/ أمين توفيق الطيبي . الدار العربية للكتاب .١٩٨٠م.

*العسيري (أحمد معمور) كاتب ومؤرخ سعودي:

٦٠. موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر: مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض . الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

*عمران (محمود سعيد) مؤرخ مصري(ت٢٠١٥م):

٦١. تاريخ الحروب الصليبية: دار المعرفة الجامعية . الإسكندرية . مصر . ٢٠٠٠م

٦٢. معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى: دار المعرفة الجامعية . الإسكندرية . مصر.

*عنان (محمد عبد الله) مؤرخ مصري (ت١٤٠٦هـ):

٦٣. دولة الإسلام في الأندلس: مكتبة الخانجي . القاهرة . ط٤.١٤١٧هـ/١٩٩٧م . ٥ أجزاء

*الغنيمي (عبد الفتاح مقلد) مؤرخ مصري:

٦٤. موسوعة المغرب العربي . مكتبة مدبولي، القاهرة . ١٩٩٤م.

*المدني (أحمد توفيق) مؤرخ جزائري(ت١٤٠٤هـ/١٩٨٣م):

٦٥. المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا: مكتبة الاستقامة . تونس . المطبعة العربية . الجزائر ١٣٦٥هـ

*المصري(أبو سعيد):

٦٦. الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي . المكتبة الشاملة.

*مقديش(محمود بن سعيد) مؤرخ تونسي(ت١٢٢٨هـ /١٨١٣م):

٦٧. نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار: تحقيق/ علي الزواري، محمد محفوظ. دار الغرب الإسلامي . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى ١٩٨٨م . جزءان.

*مؤنس(حسين) مؤرخ مصري(ت١٩٩٦م):

٦٨. تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس: مكتبة مدبولي القاهرة . الطبعة الثانية ١٩٨٧م.

٦٩. معالم تاريخ المغرب والأندلس: الهيئة المصرية للكتاب . مكتبة الأسرة . القاهرة ٢٠٠٤م.

*الميلي (مبارك بن محمد) (ت١٣٦٤هـ):

٧٠. تاريخ الجزائر في القديم والحديث . المؤسسة الوطنيّة . الجزائر ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م . جزءان.

ثالثًا: المراجع الأجنبية:

Abulafia. D.

71- The Two Italies: Economic Relations Between The Norman Kingdom Of Sicily And The Northern Communes,London,New York,1977.

Henri Pirenne's,

72- Economic And Social History Of Medieval Europe, New Yok.

Setton,K,M,

73- Ahistory Of The Crusades,London,1969-1974.

W. Heyd.

74- Histoire Du Commerce Du Levant Au Moyen Age Leipzig Leipzig 1923.

رابعًا: الدوريات والمقالات:

*الباروني(يوسف بن أمحمد) باحث ومؤرخ تونسي(١٩٩٧م):

٧٥. جزيرة جربة في موكب التاريخ: تحقيق وإعداد سعيد بن يوسف الباروني . على الموقع الإلكتروني http://elbarounia.com/LIVRE_youssef.pdf

*البوعبدلي (المهدي) مؤرخ جزائري(ت١٩٩٢م):

٧٦. جوانب من تاريخ بونة الثقافي والسياسي عبر العصور: مجلة كلية الآداب . جامعة وهران . الجزائر . العدد٢٣/٢٤ عام١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م.

*بوعزيز (يحيى) مؤرخ جزائري(ت٢٠٠٧م):

٧٧. عنابة عبر التاريخ: مجلة كلية الآداب . جامعة وهران . الجزائر . العدد٢٣/٢٤ عام١٤٣٧هـ/٢٠١٥م.

*السرجاني (راغب) طبيب ومؤرخ مصري:

٧٨. قصة الإسلام في بلاد المغرب: مقال نشر بموقع قصة الإسلام: صفحة التاريخ الإسلامي بتاريخ ٢٠٠٨/٧/١٧م.